الكتاب الثاني

حضارة بلاد مابين النهرين

ان القاء نظرة خاطفة على مجمل حضارة بلاد ما بين النهرين لا يعد مجازفة اكبر من تلك التي خضناها عند قيامنا بالعمل نفسه نسبة لحضارة وادي النيل .

مصر وبلاد ما بين النهرين: تشابه في المصير والحضارة

ان حضارة مصر وحضارة بلاد مـــا بين النهرين ، وقد اعقبتا حضارة مشتركة لا بل حضارة شاركتها فيها اقطـــار اخرى ، ولدتا واتخذتا شكلاً في تواريخ متقاربة ، وان عسر علينا تحديدها بدقة . وقد فقدت كل منها سيادتها في فترتين لا تبعد الواحدة عن الاخرى اكثر من خمسة عشر عاماً ، تحت ضربات عدو مشترك هو المملكة الفارسية . ولكن استمرت كل منها ، بعد ان زال استقلال الدول التي اتحدتا معها اتحاداً ذاتياً ، على شيء من الحيوية ايام الحكم الاجنبي . ولا عبرة من ثم ان هوت حضارة بلاد ما بين النهرين قبل الحضارة المصرية اذ كان قد قضي فعلاً على هذه الاخيرة منذ مدة بعيدة . ونسبة للزمن فان سرد الوقائع الذي يظهر الحقـائق الثابتة بقوة اشد من قوة اظهـــار الاختلافات التي يسببها الوقت والبيئة ، لا يجب ان يلاقي من ثم صعوبات كبرى : وهنا ايضاً فان حبك الحوادث يجمع الشتيت من آلاف السنين .

مصر وبلاد ما بين النهرين: حضارات موحدة ومقفلة

ان صعوبات اخرى تنشأ عن اختلاف الواقع الجغرافي قد تعترض سرداً مثل هذا ، ولكن تذليلها نسبة الى مصر اسهل ، اذ ان الطبيعة ، باستثناء الجهة الجنوبية ، تعين لمصر حدوداً ، وتدعوها للوحدة . وتختلف الحالة ان اعتبرنا بلاد ما بين النهرين ، اذ ان الصحارى التي تحيـــط بها ، باستثناء جهة البلاد العربية ، اقل عداوة للانسان من الفيافي التي تحد مصر . وان اعتبرنا ناحيـة سورية خاصة نر بان لهذه الباديات بالاحرى منظر السباسب دون البراري الحقيقية ، وعلاوة على ذلك فان الشواطىء الفينيقية والسورية هي قريبة نوعاً ما ومغرية ايضاً لتعوض عن الجهـد الذي يتطلبه اجتيازها ، هذا الاجتياز الذي يقلل بصورة جدية المسافة . وعلاوة على ذلك فان بلاد ما بين النهرين تتصل دون صعوبة باقطار اخرى تناسب حياة الانسان .

لذا لم تجد بلاد ما بين النهرين نفسها محصورة ضمن حدود طبيعية تفرض ذاتها على الجميع ، وذلك تحت عوامل داخلية وخارجية . وخلافاً للشعوب المصرية فان سكان بلاد ما بين النهرين لم يُدعوا للوحدة ولم تُلجم اطماع رؤسائهم التوسعية التي لم تتعثر بعراقيل طبيعية الا في البعيد البعيد عن بلادهم . ودون اي ضرر جلل يسهل تقسيم البلاد الى دول عدة ، كما تستوعب باكثر سهولة المؤثرات والنفوذ الاجنبي لا بل هي اكثر عرضة للغزوات . وبالمقابلة فهي تواقة اكثر الى ان تلقي بقواها ورجالها خارج حدودها وتصهر بواسطتهم حضارتها .

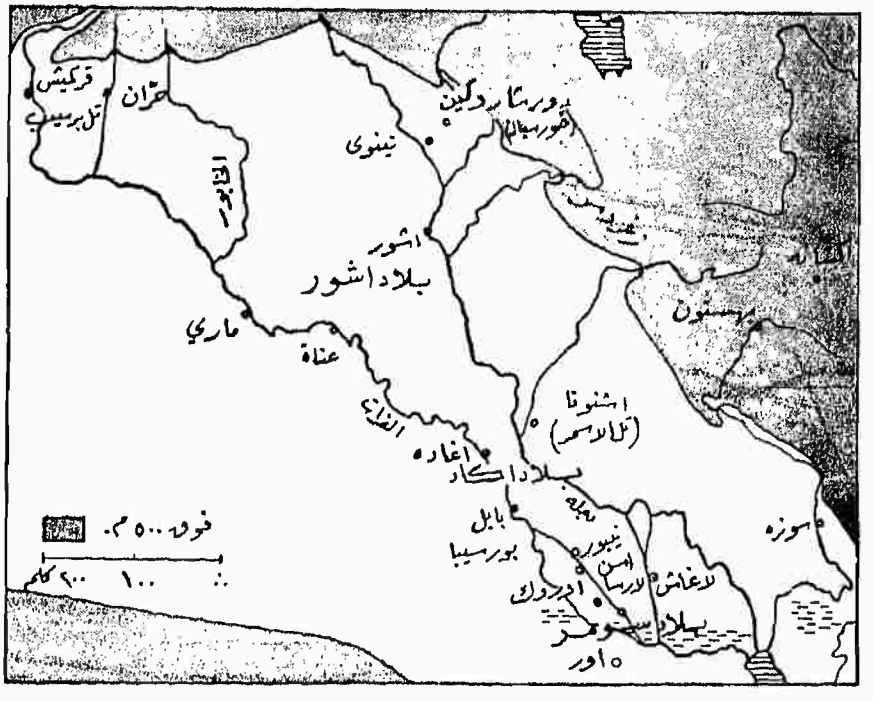

الشكل ٩ ـ بلاد ما بين النهرين

لذا فان حضارة بلاد ما بين النهرين تبدو للمؤرخ اكثر ترجرجاً في ديمومتها الزمنية واقل وحدة وتماسكاً ، اذ تظهر عليها المؤثرات القطرية باشد جلاء ، ومن نقطة الانطلاق هذه يتضح لنا ، ولو جزئياً ، كيف انقرضت هذه الحضارة قبل الحضارة المصرية . واذ كانت اكثر استعداداً للذوبان والتشتت ، غدا من الطبيعي ان لا تبدي مقاومة ضارية ضد الحضارات المنافسة .

وحدة حضارة بلاد ما بين النهرين

ان الفوارق والتقلبات التي طرأت على حضارة بلاد ما بين النهرين في الزمان والمكان لا تحول مع هذا دون وجود هذه الحضارة واعتبارها ، بما فيها من ابداع وتناغم ، وحدة مستقلة من السهل مقارنتها مع الحضارات المعاصرة والمجاورة . فهي نشأت في بلاد ما بين النهرين السفلى ، في المنطقة المدعوة سومر . وفيما

يتعلق خاصة بالدين والكتابة فقد وسمها التـأثير السومري بأثر عميق قاوم آلاف السنين ، حتى بعد ان قضت على السومريين عناصر عرقية اخرى . وفي هذين المجـالين تبرز الديمومة بشكل واضح : ولكن الدرس والتحليل سيكشفان لنا بصورة تكثر او تقـــل سهولة مواطن اخرى لهذه الديمومة .

والحق يقال بانه ، في مصر كما في بلاد ما بين النهرين، وبشعور اقل استمراراً فقط في مناطق دجلة والفرات مما هو في وادي النيل ، توخّى المرء في عصر دعوه بالذهبي احياء الماضي السحيق الاكثر قدماً .

الفصل الأول

الأشكال السياسية

التجزئة

ليست الوحدة السياسية التي تشمل قطراً شاسعاً عنصراً اساسياً في حضارة بلاد ما بين النهرين . لقد تحققت احياناً ولكنها لم تدم فترة طويلة الامد . وعلى كل فاننا لا نجدها ، في الحقبة الاولى، في بلاد ما بين النهرين السفلى حيث ، باكراً جداً ، تبلورت الخطوط الرئيسية لحضارة مدعوة لان تستمر وقتاً طويلاً .

والدولة — المثال هي البلدة ، اعني المدينة : مركز قطر يتعذر علينا ، لغموض معطيات الجغرافية التاريخية ، تحديد مساحته الا نادراً جداً . ففي هذا السهـــل المنخفض حيث تنتفي العروض الطبيعية ، ما عدا شعاب الانهر والقنوات — وقد احدثت فيضاناتهـــا ، ولا تزال الى يومنا ، اكثر من تغيير مكاني لما تسببه من ارتفاع في مستوى الماء والطمي — فاننا لا نرى اي اثر لحدود مستديمة ، لكونها طبيعية ، لقطر معين. وقد نشأت مدن لا يزال موقعها الى يومنا مجهولا: كأغاده(او اكّاد) التي فرضت اسمها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة . وما القول عن تخوم المدن التي غدا ضرورياً لحفظها بذل جهود جبارة ومستديمة ضد المستنقعات والرمال ؟ ولكن لا يرقى الشك الى وجود الكثير منها وان استحال علينا تقدير مساحتها التقريبية .

وتركت المدينـــة هنا آثاراً اكثر مما تركت زميلتها في مصر مع انه ، في منطقة الدلتـــا اقله ، لم يختلف الوضع اختلافاً كبيراً في اول العهد . ولا يشعر المرء قط في بلاد ما بين النهرين ، كما يلمس ذلك في مصر ، باي توق الى نظام موحد اعتبر لازباً لاسعاد حيـــاة السكان . وكان باستطاعة هذا التنظيم ان يثمر هناك ايضاً نتائج حسنة لما يحققه من تجانس وتناسق في اعمـــال الري والتجفيف . ولكن للفيضانات النهرية هنا تأثيراً اخف على الانتاج ، ولربما كان السكان ايضاً اقل كثافة . وعلى كل حال فان التجزئة السياسية التي اعتبرها المصريون فوضى لم تعد هنـــا بحد ذاتها عامل سوء .

الاستمرار على مفهوم مقومات البلدة

مع هذا فقد غدا من الحتم ان تتعدى البلاد مستوى التجزئة . ولا جرم بانه نشأت منازعات بين المدن المتجاورة . ونتيجة للحروب او للمحالفات حيث يفرض احد الفرقاء سيادته ، نشأت دول اكثر اهمية ، لا بل ولدت مراراً امبراطوريات بكل ما في الكلمة من معنى .

ان الالقاب الرسمية التي كان يحملها الملوك تكشف لنا بعض الشيء عن مفهوم الدولة . ويتراوح هذا المفهوم ، كما يبدو ، بين البلدة التي تتسع قليلاً او كثيراً وبين المنطقة . ومع اسم المدينة ، كمدن أور وأوروك ولاغاش وغيرها برز ، باكراً جداً ، لقب « ملك البلاد » : وهذا ما ينطبق على سومر التي لم تُعدّ بلدة . ولكن لقب « ملك اكاد » هو شديد الغموض ، إذ مع الزمن اطلق اسم هذه المدينة على مجمل القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين السفلى ، ومن ضمنها بابل . وينطبق الامر نفسه على لفظة « اشور » التي عنت في البدء احدى مدن بلاد اشورية العديدة ، ثم اطلقت بصورة واقعية على المنطقة بكاملها بعد ان تضاءلت امامها سائر المدن . وهكذا فقد حافظت الدولة ، بعد ان اتسعت رقعتها كثيراً ، على ذكر وسمة الخلية الاولى التي منها نشأت .

مفهوم الامبراطورية

وفي الوقت ذاته نلاحظ استعمال تعابير يختلف مفهومها اختلافاً كلياً . فان لقب « ملك المناطق الاربع » قد يشير في البدء ، علاوة على سومر واكّاد ، الى منطقتين اخريين في الشمال — الغربي والغرب امورّو وسوبارتو يصعب تعيين حدودهما بصورة واضحة . وقد تشمل هذه التسمية ، استناداً الى تعبير كان رائجاً يومئذ ، مناطق تمتد « من البحر الأسفل (الخليج الفارسي) الى البحر الاعلى (البحر الابيض المتوسط) » . ولكن يفضي بنا هذا اللقب الى لقب آخر هو « ملك مناطق العالم الاربع » الذي يفرض تفسيراً اشد اتساعاً لانه يعيد الى الذهن الجهات الاربع الاساسية . ومما يؤكد هذا التفسير لقب « ملك الكل » و « ملك العالم » الذي لن يتوانى بعض الملوك الاشوريين والبابليين ان يتخذوه . فالدولة ، التي تسلسلت من مفهوم البلدة ، تنتهي بالتساوي مع مفهوم الامبراطورية العالمية .

ان هذا المفهوم نظري دون شك اذ لم يحققه عملياً اي من الملوك الذين اتخذوا لانفسهم مثل ذاك اللقب ، ولكنه يشير اقله الى ادعاءات لم يعتبرها المعاصرون في القرن السابع مغالاً فيها ؛ اي في عهد اوج عظمة سلالة الاشوريين السرجونيين الذين امتد سلطانهم من بحيرة « فان » الى مصر العليا ، ومن كيليكية الى بلاد الماديين *Mèdes* .

تزعزع الامبراطوريات

وفعلاً بقيت هذه الامبراطوريات ، عظيمة او صغيرة ، عرضة للزوال السريع .

وقد سعى لتشييدها كل الذين ، هنا وهناك ، توصلوا الى بعض السلطة . وانتقلت السيادة من

تلك البلدة في سومر الى ساميّي كيش الذي استقر ملكها سرجون (القديم) في اكاد واسس اول امبراطورية عظيمة في بلاد ما بين النهرين . ثم نرى سلسلة من الممالك السومرية تلتها اول امبراطورية بابلية اعلى شأنها في القرن الثامن او السابع ق.م. الملك حمورابي العظيم . ولم تكوّن بلاد ما بين النهرين في كل مرة الا نقطة انطلاق يسعى منها الاباطرة لاخضاع بلاد عيلام وسلسلة جبال زعروس شرقاً ، ووادي دجلة الوسطى اعني اشورية شمالا ، ووادي الفرات مع ماري في الشمال الغربي، ثم عرباً الشواطىء السورية ولربما ايضاً — كما يزعم اقدم سرجون القديم — جزيرة قبرص . وهكذا تبدو روح السيطرة الاشورية ، ان اعدادها الى إطار تلك الحقبة التاريخية الطويلة ، كأنها وريثة تلك الاتجاهات التوسعية التي لم يكتب لها النجاح طويلاً ، وان هي أوصلتها الى مدى اوسع .

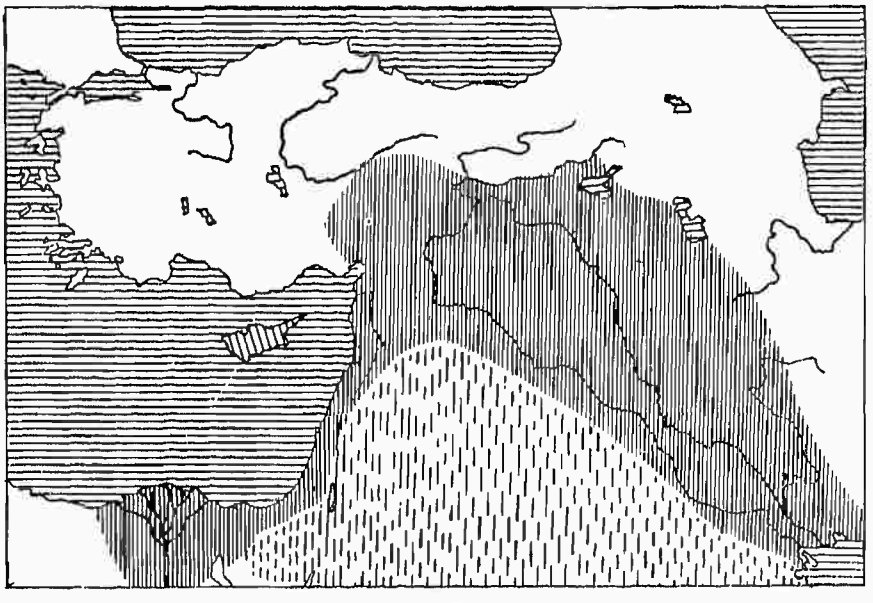

الشكل ١٠
امتداد الامبراطورية الاشورية في عهد اشوربانيبال

اذ كان البناء يتزعزع كل مرة ثم ينهار تحت تأثير الثورات الداخلية او غزوات الشعوب المتدفقة من الجبال او السباسب المجاورة ، هذا البناء الذي كان قد شيد بصعوبة كلية وغدا ثمرة غزوات سنوية متكررة . واتخذ البطش الذي يرافق كل فتح او اخماد ثورة اشكالاً أشد قسوة، وقد بلغ الزبى اثناء الحروب التي خاضها الملوك الاشوريون . ولكن لم يحل الابداع في خطط التنكيل دون ازدياد المساعي الفاشلة .

وعبثاً سعى فاتحو بلاد ما بين النهرين ان يجمعوا تحت سلطانهم المدن التي اعتقدوا بأن

مدنيتها قريبة مما اعتبروه اساس سيطرتهم . فما هو القول اذن عن المدن او القبائل الغريبة ؟ ان النزعة الفردية التي انبثقت عن المفاهيم الاولية تستمر قوة لا تقهر .

ولكن نتيجة لكثرة الحروب والثورات التي لا يخمد لها لهيب ضعفت قوى شعوب ما بين النهرين . وقد سهل هذا الوهن تحقيق اهداف فاتحي المستقبل من امثال كورش الايراني واسكندر المقدوني .

النظام الملكي وجماعة المواطنين

تتطلب الحرب وحدة القيادة ، أعني قائداً حربياً يسعى حتما ليصبح زعيماً سياسياً ، لذا فلا عجب اذا غدا النظام الملكي في بلاد ما بين النهرين كما في وادي النيل اساس الادارة السياسية . ولكن الفرق واضح بين هذين النظامين الملكيين اذ ان مبدأ التجزئة الى دويلات مستقلة هو اكثر شيوعاً في بلاد ما بين النهرين ، كما ان المدينة في تلك البلاد قد اتبعت لربما في الاصل النظام الجمهوري دون الملكي .

ويستحيل حقاً على نفر من المؤرخين الثقة تفسير بعض النصوص ان لم يستندوا الى وجود نظام يمت الى « الديموقراطية البدائية » حيث كان مسيّرو الامور « الشيوخ » يستشيرون ندوات الرجال الاحرار . ولم تنتخب هذه الندوة رئيساً واحداً الا في حال نشوب أزمة ولحل هذه الأزمة فقط . وقد حوّل تكاثر الأزمات وعبقرية بعض الزعماء هذا النظام العارض الى نظام مستديم .

والحق يقال ، إن هذه النظرية تسيء الى المبدإ العام ، الذي لا يحتمل اي شواذ ، القائل بشيوع النظام الملكي . ولكن في زمن لاحق ، وفي بعض المدن التي كان يحكمها ملك ، كما نرى ذلك مثلاً في مستعمرات الأشوريين ببلاد كبادوكية في اوائل الألف الثاني ، نشهد بعض المنظمات الجماعية التي تسيطر عليها طبقة ارستقراطية بورجوازية .

الملك « نائب الآلهة »

لا مشاحة بأنه ، نسبة الى تطور النظام السياسي ، يجب ان نحسب حساباً للآلهة كما نفعل ذلك مع المواطنين وطالبي السلطة .

فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة . ومع ان آلهة اخرى تُعبد في تلك المدينة ، فان لهذه الآلهة فيها حق السيادة والاولية ، كما ان هيكلها يفوق سائر الهياكل عظمة وغنى . وهي التي توحي القرارات سواء اتخذها المجلس او الشيوخ او الملك !

لذا فان السلطة الملكية تستند دوماً الى أساس الهي . « لقد هبط النظام الملكي من السماء »، وهذا ما يحلو للنصوص ان تؤكده . وعلاوة على هذا فان اللقب الذي يحمله ذوو السلطة ليس دائماً ، اقله في اوائل العهد ، لقب « الملك » . لذا غالباً ما تتلاقى مثل هذه الكلمات « حاكم المدينة » ، خاصة متى احتكر ذو السلطة مسؤولية الكاهن الأعظم ايضاً و« نائب » و « مندوب »

الآلهة . لذا فان الملوك الاشوريين الاوائل مع تسمية ذاتهم بـ« الملوك » ، لا بل « ملوك العالم » لا ينفكون عن اعتبار انفسهم « نواب الاله أشور » ، ولم يعد يمنح لقب « الحاكم » — وقد فقد من حقيقة مغزاه وقيمته الاولى — الا الى الامراء التابعين او الى الموظفين .

وبالعكس ، ولفترة طويلة ، نرى بأن لقب هـــذا الاله او تلك الإلهة هو « ملـك » او « ملكة » المدينة .

تعيين وتنصيب الملك

يظهر كل هـــذا الدور السياسي الذي ، نظراً للمعتقد الديني وغنى الهيكل ، يلعبه رجال الكهنوت او الكاهن الاعظم في شؤون المدينة او المملكة . وهكذا فان النظام يحتفظ ، من وجهات عـــدة ، بالمظهر الثيوقراطي . فالسلطة الملكية لا تصبح علمانية ، لا بل انها لا تتجه نحو العلمنة ، بل تسعى لتستفيد من وضع سبقهـــا في الزمن .

وفعلاً يفترض في الآلهة امر تعيين صاحب السلطة . فهي « تنظر اليـــه بحدب » او « تلفظ اسمه » . وكانت تتم هذه الوقائع بموجب طقوس لا تزال نجهلها . ولا غرابة في التوفيق بين هذا الاصطلاح وبين مبدإ الوراثة إذ ان الملوك يفخرون بالاصل الملكي الذي ينتسبون اليه . ولكنهم مع هذا لا يتناسون في الوقت نفسه عن التذكير بالانتخاب الذي وقع عليهم من قبل الآلهـــة . وفي عهد اوج الامبراطورية الاشورية يباشر الملك ، زيادة في الاطمئنان ، وهو على قيد الحيـــاة ، بانتخاب احد بنيه . وهذا يعني دون شك بانه يعرض من ينتخبه لتقره الآلهة ، إذ لا اثر لمبـــدإ البكورية : فاشوربانيبال يعلن بكل صراحة بانه اصغر سناً من « اخوته الزناة » .

وبعد المصادقة على الانتخاب ، يستحصل الوالد على يمين الخضوع والاحترام لابنـــه ، ويلج المنتَخب « بيت الوراثة » حيث يدرب على مهام منصبه المستقبلة . ويوم ارتقـــاء العرش تجري احتفالات دينية يُمنح اثناءها المنتخب اسمه الملكي ويُقلد الشعارات ، رمز السلطة الالهيـــة . وتقام هذه الاحتفالات في اشور ، مدينة الامبراطورية الاشورية المقدسة ، وليس في المقر الملكي ان كان في نينوى او في مدينة اخرى .

لذا يغدو من السهل فهم الاسطورة التي تجعل من سرجون القديم ابناً لاحدى الكاهنات ، وقد ربي عند بستاني ، او تلك التي تؤكد بان اشورناصيرابلي الثاني — ملك اشوري من القرن التاسع — يعتبر نفسه من اصل جبلي وضيع ، مع انه ابن ملك ، ويقول من ثم : « انت يا اشتار ، سيـــدة الآلهة الرهيبة ، قد القيت نظرك علي ، واردت ان اصبح ملكاً ، وانتشلتيني من بين الجبال .. وعهدت إلي بصولجان العدالة » .

واجبات الملك الدينية

ان التقوى ، والحالة هذه ، هي صفة من صفات الملك اللازبـــة ، وواجباته الدينية هي اولى واهم واجباته .

ومنها واجبات طقسية . فالملك هو الكاهن لا بـــل الكاهن الاكبر للاله الوطني ، حتى ولو لم تقر له الكتب صراحة بهذه الالقاب . وهو الذي يقدم شخصياً طقوس العـــادة ، وهو الذي يشيد ويرمم ويكرس المعابد . وهو اكثر من اي كان مؤهل للقيام بطقوس التطهـــير ، وتقديم الذبائح ، واستشارة الآلهة .

ومن هذه الواجبات ، او التي تتصل اتصالاً وثيقاً بالمذكورة اعلاه ، واجبات ادارية . فهو الذي يراقب ادارة اموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين ويتدخل لتقويم ما اعوج منهـــا . وهو الذي يعين في المناصب الكهنوتية ، اقله في المراكز الاكثر اهمية ، كوظيفة كبير الكهنة ، ولا يتردد في اسنادها الى افراد من اسرته ، استناداً بطبيعة الحال الى اوامر الآلهـة التي يعجب لها بكل سذاجة .

واخيراً فان بعض هذه الواجبات هي معنوية. ومن المؤكد بان كلمات « عدالة » و«انصاف» و « حقيقة » تذكر اكثر من مرة . فحمورابي عندما اعلن قانونـــه اراد ان يرضي شمش« إله العدل » وان « يؤمن الحق في البلاد ويقضي على فاعل الشر والرذيـــلة ، ويمنع القوي من الحاق الاذى بالضعيف » . ولكن في الاساس تتحد العدالة اتحاداً ذاتياً بارادة الآلهة التي يستعصي فهم اسبابها على ادراك البشر الذين لا يحق لهم من ثم مناقشتها والحكم عليها .

وهكذا فان واجب الملك المعنوي الاول قبل الالهة ، بصورة عملية ، هو الطاعة العمياء . انه يسعى لمعرفة ارادة الآلهة ، لذا فهو يراقب ويأمر بمراقبة وتفسير كل الدلائـــل الممكنة : احلامه ، الظواهر الفلكية ، اجوبة الآلهة ، كبد المحرقات الخ ... انه يضرع الى الآلهة لتلهمه ؛ وبالمقابلة عليه ان يخضع لايحاءات الآلهة فيبدأ المعركة عندما تأمره بذلك ، ولا يخوضها الا عندما تشير عليه بذلك . ولدينا نصوص عدة تظهر لنا علماء التفسير يطمئنون باله ان ساوره شؤم ، لا بل يلحون عليه كيلا يهمل الرقي والتوضؤ ، او يأمرونه ، حتى اشعـــار آخر ، بالمثابرة على صيام مضن ينهك قواه، او على عدم تبديل ثيابه ، وعدم تقديم المحرقات وركوب العربات الخ.. وهكذا يغدو الملك فعلاً عبداً لعلماء تفسير ارادة الآلهة اذ يجب عليـــه ان يظهر بمظهر التقي الشديد الورع .

الملك صلة الوصل بين الشعب والآلهة

يبدو من السهل ، استناداً الى هذه العلاقات مع الآلهة ، ان نجد اوجه شبه بين النظام الملكي المصري والنظـــام الملكي في بلاد ما بين النهرين . ولكن لا تقل الاختلافات بينهما وضوحاً ايضاً ومن اهمها دون شك عدم اعتبـــار ملوك بلاد ما بين النهرين انفسهم عادة وبشكل اساسي آلهة .

ففي بعض مدن بلاد ما بين النهرين السفلى نجد نفراً من الملوك الاقدمين في الزون (البانتيون) المحلي ؛ ولكن حتى بعد المات فان الرجال الذين يكتسبون صفة الالوهيـــة يعدون من الشواذ . ويصبح هذا المبدأ اصدق حقيقة ما دام الملك على قيد الحياة . ويمثل لنا نصب اللوفر الشهير ،

وقد اقامه الخليفة الثالث لسرجون القديم نارام سن ملك اكاد ، الذي كلل هامـــه بالتاج ذي القرون ، وهذا امتياز لا يعطى إلا للآلهة . ولكن هذا امر لا ثاني له ! ففي الالفـــين الثالث والثاني يسبق اسم بعض ملوك بلاد ما بين النهرين السفلى نعت يـدل القارىء على ان الاسم الذي يلي هو اسم « إله ». ولكن لم يعمّ قط هذا الاستعمال وقد زال مع عهد حمورابي على ابعد تقدير. وحتى مع هذا الملك الاخير فلا يبدو الامر بعيداً عن كل شبهة ، ويظهر الخلاف على اشده بين المؤرخين عند تفسير لقب « إله الملوك » الذي يطلقه الملك على نفسه في قانونه .

ولا نجد امثلة اخرى الا في عصر قديم وفي حالات افرادية. وقد يستعمل اسم ملك بدل اسم إله لتكوين اسماء اشخاص من امثال « حمورابي هو الهي » . فلا تدل هذه العادة مع هذا الا على احترام شخصي وليس على تأليه رسمي . وقد تذكر قصة نكاح الملك إلهة انتخبته عوض زوجها الالهي ، ولكن لا يعني ذلك الا طقس خصب . وهناك تقاليد اخرى اكثر ديمومـــة تسترعي الانتباه في العهد الاشوري : التضرع الى العاهل مشفوع بالدعاء الى الآلهة في عبارات يمين ، او تأكيد من الملك بانه ينتسب بوشائج القربى الى الآلهة كما يمت بالوقت نفسه الى اصـــل بشري . ولكن لا يتعدى مداها الحقيقي حداً بعيداً .

والحقيقة هي انه بينما نرى الفرعون المصري المنحدر من صلب الهي والمترعرع على يد الآلهة يرتقي حين اعتلائه العرش الى مصاف الآلهة ليستمر على هذا الصعيد حتى بعد مماته ، نجد بان الملك في بلاد ما بين النهرين هو ممثل الآلهة فقط قبل البشر ومندوب البشر لدن الآلهـــة . فهو اذن والحالة هذه صلة الوصل بين العالمـــين الرباني والانساني . وهو لمرؤوسيه نوع من الطلاسم ، يدافع عنهم ويسعى لتنفيذ رغبات الآلهة نحوهم ، اي انه يخلق لهم جواً ملائماً لحياتهم وسعادتهم بالاتفاق مع القوى التي تفوق الطبيعة ، ويسهر على ديمومة هذا الجو .

السلطات والسلطة الملكية

سبق واشرنا الى الحدود التي تقررهـــا هذه النظرية للسلطة الملكية المطلقة . ولكن لا تجعل هذه الحدود من الملك رجـــلاً شبيهاً بامثاله الآخرين ، إذ ان خضوعه للرغبات الالهية تقابله من جهة اخرى طاعة مرؤوسيـــه العمياء التي تسهل له القيام بالموجبات الملقاة على عاتقه . لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحيـاة الجماعية . والى اي حد تكون سلطاته هذه حقيقة وتتستر بحجج دينية ، ام ظاهرية فقط لتخفي والحالة هذه ايحاءات تنتسب الى اصل كهنوتي ؟ انه من المحال تقرير ذلك على ضوء النصوص الرسمية التي وصلت الينا . وتختلف الطباع دون شك في هذا المجال باختلاف المـــلوك ، فتبرز من ثم حالات عدة متنوعة .

وعلاوة على امتيازاتها الدينية فللملكية مهام حربية وادارية .

القيادة الحربية

ان الملك هو قائد الجيش الاعلى ، ولربما غدت هـــذه المنزلة في الاساس سبب وجوده . وغدا من ثم لزاماً عليه ان يحارب بصورة مستديمـــة وعلى رأس

جيوشه . ويتباهى الفن والأدب لاعلان بطولاته . وتعده الآلهة بالنصر وتمنحه اياه ، لذا غـدا وصف المعارك شبيهاً بتقارير يقدمها للآلهة التي ترعاه وتحميه . وتظهر كثرة هذه التقارير المهمة القيادية التي يأخذها على عاتقهم ملوك الدولة الاشورية في عصرها الذهبي . ومن النادر ان تنقضي سنة دون ان يخوض الملك فيها حرباً ، ونادرة الغزوات التي يلقي زمام قيادتها ، عند غيابه ، الى التورتانو ، ترتان التوراة ، اعني نائبه . غير انه بالواقع من المحتمل جداً بان هـذا الاخصائي يقوم بعمله جنباً الى جنب مع الملك كانه القائد الحقيقي . ولكن عظمة الملك تحتم على هذا النائب بان يختفي وراء الرئيس الاصلي .

ولا بد ان يظهر هذا النشاط الحربي بصورة ما ، وان لم يحتل دوماً الصدارة في حياة الملك . لذا يحتم وجود جيش . وتعرف حالة هذا الجيش من خلال الآثار المنقوشة والادبية معرفـة لا بأس بها وان تفاوتت تبعاً للشخص والزمن .

الجيش الاشوري

نستطيع ان نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات الحربية وخطط القتال . وسنجد في هذا المجال الاساطير والخيالات . ولكننا نكتفي ، استناداً الى نتائج هذا التطور في قمتـه ، بان نلقي نظرة على الجيش الاشوري في القرنين الثامن والسابع ، هذا الجيش الذي يعد بحق اشد وارهب اداة حربية حققتها دولة في بلاد ما بين النهرين : ويفسر لنا تفوق هذا الجيش عدد انتصاراته واستمرارها .

ان تقسيم الفرق وتنوع معداتها نسبة الى المهمات الملقاة على عاتقها دقيقان جداً .

لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر – وكانت الحمير تجر العجلات السومرية القليلة العدد – . وقد استخدم لهدفين . فهو كدابة حمل يجر العجلة الحربية التي يعلوها رجال عدة : ففي المقدمة يقف السائق الذي يوجه الحصانين المشدودين الى جانبي المجر ، ويليه المحارب وبالقرب منه حربة وجعبة كبيرة للسهام ؛ وخلف الاثنين « الثالث » الذي يقلب بين يديه ترساً دفاعاً عن رفيقيه . وكحيوان ركوب ساعد الحصان في اوائل القرن التاسع على تكوين فرق للخيـالة . ولم يكن آنئذ ركبٌ او سرج بل فرش. واوجب ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما برح يتقدم تقدماً مستمراً لتقدم وتطور السلاح الهجومي . ورافق في اول الامر المقاتلَ الخيال مساعدٌ يتطلب صهوة جواد ليقود فرس الجندي ويحميها معاً . غير انه مع الزمن استغني عن هذا المساعد اذ ألبس الحصان قطعاً واضاف المحارب الى خوذته درعاً معدنية واتخذ المسماة . وغدت عجلات القتال وفرق الخيالة الثقيلة اهم عناصر الجيش الاشوري الهجومية .

ويتألف جيش المشاة ، وهو الاكثر عدداً ، من فرق الرماة وحاملي الحربات ، وقد اعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والاحذية وحملوا الدرقة . ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة التي ضمت رماة المقلاع الا سلاح دفاعي اقل وزناً وعدداً ، يجتاز رجالها سباحة ، دون شك، مجاري المياه مستعينين بظروف من جلد منفوخة او يقلبون مجاذيف القوارب على حوافي الاتراس المرتفعة .

وللجيش ايضاً فرق من العملة المجهزين بالفؤوس والمعاول لشق الطرقات في الجبال ونصب الجسور والاسراع في اعمال الحصار . لا بل اصبح للجيوش فرق للتموين لامدادها بالغذاء والعتاد ، تحملها الجمال والحمير ، إذ ان موارد البلاد الوعرة حيث يقود الرئيس جيوشه لا تكفي لحاجاتها .

وهكذا اصبح الجيش آلة معقدة يفرض حسن قيادتها على هيئة الاركان مشاكل تقنية دقيقة . ولا شيء يظهر بوضوح الاتقان الذي توصل اليه الجيش في مختلف المرافق والحلقات اكثر من التقدم الذي احرزه في فن الحصار اذ لم يجد العدو ، امام تفوق الاشوريين في المعارك ، وسيلة افضل من الاحتماء وراء اسوار مدنه . ولكن كان الاشوريون إذ ذاك يشددون الحصار بابراج متحركة يصبون منها نبالهم على المحاصرين ويقذفونهم بكوم من التراب للسيطرة عليهم . وللأشوريين آلات متحركة عليها اكباش ثقيلة لدك الجدران . ثم يقومون بهجوم صاعق لا يُغلب بواسطة السلالم او من ثغر الاسوار يتبعه النهب والتقتيل وتعذيب الملك المتمرد وجلاء الاسرى وآلهتهم الذين يصبحون فريسة لتنكيل المنتصر بشراسة وبطش .

ولكن مهما بلغ هذا الجيش من القوة والكمال فلا بد ان يلاقي يوماً ما من يصبح له سيداً ، مع انه ، حسب معرفتنا ، لم يتعرض لاي تضعضع او تخاذل داخلي . وقد يفاجئه اعداء لم يتعود اساليبهم — او بالاحرى لا يعرف لهم اساليب ! — باسراب من الخيالة لا قرار لهم اكثر خبرة من خيالته ينقضون من السباسب الشمالية والشمالية — الشرقية . ومع ان الغزّ (السيت *Scythes*) والسيماريين (*Cimmériens*) ، هؤلاء الرحل الشكس ، لم يستطيعوا ان يوجهوا ضربة قاضية الى الجيش الاشوري الذي لم يعرف الانكسار مدة طويلة ، فانهم مع هذا اضعفوه الى ان هوى تحت وطأة الماديين (*Mèdes*) — وهم ايضاً خيالة اكثر مهارة — والبابليين المتمردين . وهكذا حيّت هتافات الغبطة والخلاص والضغينة المتأكلة حسداً وتشفياً التي فجرتها الشعوب المغلوبة على امرها حريقَ مدينتي اشور ونينوى وقد هوتا ودمرتا .

التعبئة

لا وجود لجيش دون قوانين تنظم اشكال التعبئة . ولكن باستثناء بعض الحقب المعينة ، يبرز جهلنا في هذا المجال .

وقد ظهرت باكراً جداً الخدمة العسكرية الالزامية ايام الحرب ، وذلك منذ نشوء الدولة دون شك : إذ بدونها يصعب علينا ان نتصور كيف تقدم مدينة صغيرة على مغامرة الحرب والفتح . ولكن هذه الكيفية في التعبئة لا تأتي إلا نادراً جداً بجنود ذوي جدارة . لذا فان قانون حمورابي ، زمنَ كانت بابل تتحكم في مصير امبراطورية ، يكشف القناع عن وجود جنود اتخذوا الجندية مهنة لهم ، فيخدم بعضهم بصورة مستديمة في فرق الحرس الملكي ، ولا يجند بعضهم ، وهم اكثر عدداً ، إلا اذا اقتضت الحاجة ، ويقبض جميعهم اجرهم . وبالعكس ، في

ايام السلم، فانهم يعيشون مع اسرهم باستثمارهم ارضاً اقطعهم اياها الملك، مع بيت للسكن وقطيع، ملزمين فقط بتلبية نداء استناداً الى تطور التعبئة. ولم تصبح وراثة هذه الاقطاعية حقاً ولكن غدا ذلك امراً متبعاً. ومن المعتقد، استناداً الى تطور سار عليه كل نظام مماثل، بان هذه الارض اصبحت فيما بعد ملكاً للمعطى اليه، ويستطيع ان يبيعها.

ولا نجد شبهاً لهذا الأمر، كما نعرف اقله، في الامبراطورية الاشورية. فان الجنود الحقيقيين يمثلون، نسبة الى عدد السكان، عدداً اقوى بكثير، وهذا مما يدل دون شك على وجود الخدمة العسكرية الاجبارية الفعلية مع تدريب اشد تغلغلاً في الجماهير. ونجهل ايضاً، نسبياً، اذا كان الاختلاف بين فرق الجيش يتماسب مع التفاوت الاجتماعي. وهذا من المحتمل اذ ان رجل الحيالة او المقاتل على العجلة مثلاً هو دون ريب من طبقة ميسورة الحال. ولكن، حتى وان شملت التعبئة مجالاً اوسع، فان المجهود الحربي اقوى من ان يتحمله الاشوريون وحدهم. لذا يستعين الملوك بفرق من المرتزقة تقدم افرادها الشعوب الخاضعة لطاعتهم. لا بل يبدو مراراً بان الملوك فرضوا تعبئة ما على البلاد المغلوبة على امرها. ولكن تبقى صفوف الجيش الاساسية دون ريب من اصل اشوري.

وهكذا تتكون مجموعة من التقاليد والنظم الحربية ترثها الامبراطورية الفارسية، حتى ان آخر دولة من دول بلاد ما بين النهرين، المملكة البابلية الثانية، تساهم بدورها في اغناء هذه المجموعة اذ انها، في مدة سيطرتها الوجيزة التي تمتد من تصعصع بلاد اشور الى الفتح الفارسي لا تتوانى عن تجنيد مرتزقة يونان فيخدم نبوكدنصر شقيقَ الشاعر ألسه (*Alcee*). وفي الفترة نفسها يقدر فراعنة سايس (*Sais*) مزايا اليونانيين الحربية. وعندما يتخذ ملوك الفرس مرتزقة من اليونان منذ اواخر القرن الخامس، فانهم بذلك يحذون حذو الممالك التي قضوا عليها.

الادارة والموظفون

ان ملك بلاد ما بين النهرين هو رأس الادارة كما هو القائد الحربي في الدولة، توجهه اسباب اضطرارية مختلفة نحو المركزية حتى ولو لم يجنح خلقه الى ذلك. ويلزمه لجيشه كفاءات مادية وبشرية، وعليه ايضاً ان يسعى لتقوية وحدة الاقطار والشعوب التي يسيطر عليها. ولا تتحقق هذه الرغبات إلا اذا فرض طاعته، ولا يتسنى له ذلك الا اذا اوجد ادارة محكمة او اقله مراقبة يقظة.

واهتمت هذه الادارة، في اول الامر فقط، وذلك بصورة لا يرقى اليها الشك، بتدبير الاملاك الملكية. واذ تتخذ من القصر مركزاً لها فهي تُنظم « كبيت » الملك ولها نظار وموظفون يقومون بخدمات معينة. ونرى هذا التنظيم، ولو بصورة مصغرة، في « بيوت » الملكة وولي العهد. ولكن رويداً رويداً امتدت صلاحيات هذه الادارة الى الدولة باسرها، وذلك بسهولة

اذ يظهر بانه لم يجر قط اي تمييز بين املاك العاهل الشخصية وبين الدولة بمعناها الحقيقي .

وتنشأ الصعوبة الكبرى بطبيعة الحال من كيفية التوفيق بين السلطة الملكيـــة واستقلال المدينة ، وقد كانت دولة قديمة ضمت الى دولة اكثر اتساعاً . وفي هـذا المصار لم ينجح نظام المركزية الملكية اكثر من نجاحه في المملكة البابلية ايام حمورابي،حتى ان اعظم الملوك الاشوريين لم يأتوا بشيء يفوق اتقاناً ما اتى به حمورابي . انهم لربما تعاطوا اكثر منه مع جماعات بشرية من قبائل جبلية او قبائل على نصف بداوة ، وهي اقل تنظيماً واقل خضوعاً حتى ارتضت بنظام اقطاعي اكثر رخاوة .

المركزية زمن حمورابي

وبالعكس فان السلالة البابلية الاولى اخضعت لارادتها حياة الجماعات المغلوبة على امرها من كافة النواحي ، وقـد تبقي على الامراء المحليين تاركة لهم لقب « حاكم » — وقد كان لقبهم قديماً « الملك » — . ولكن معظم هؤلاء الحكام ليسوا الا موظفين يعينهم العاهل وينقلهم متى اراد من مدينة الى اخرى . ويحتفظ الملك ، اعني الادارة المركزية التي تسيّر الامور بالقرب منه وتنفذ اوامره المباشرة ، بمراسلة دقيقة مع مختلف الجهات . فهو يتسلم التقارير وهو الذي يقرر ويقوّم ، معتنٍ مراراً بامور تافهـة جـداً وبسلوك موظفين ثانويين .

ولا يظهر تأثير الملك باكثر وضوحاً وقوة ، في اي من مرافق الحياة الاجتماعية ، مثل ظهوره في مضمار العدالة . فلقد استغل حمورابي ، وهو الملك المشترع، سلطاته القضائية ليوحـد ويوطد المركزية. والى جانب الجهاز القضائي في المدن والهياكل ، يوجد جهاز قضائي ملكي يعين العاهل فيه ممثليـه . وعلاوة على ذلـك اباح حمورابي لجميع رعاياه امكانية مراجعته او مراجعة وزيره الاعلى .

وهكذا فان الموظفين الذين لا يحصرهم عدّ يؤلفون قسماً هاماً من الامة البابلية ، وهم ينالون اجرهم مستثمرين ارضاً يقطعهم اياها الملك اسوة بالجنود الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم .

الابهة الملكية

ان للملك على كل حـال حياة ابهة تحجبه عن سائر البشر ، حتى عندما تبدو المركزية اقل شأناً والهيئة الادارية اقل عظمة . فالقصر هو « البيت الكبير » يسحق بشموخه وعظمته سائر مباني الدولة ، ما عدا الهياكل ، يحشر فيه عالم من الجنود والعبيد والخدم والكتبة ، وتراعى فيه قوانين آداب اجتماعية صارمة ، مما يجعل الوصول الى الملـــك امراً صعباً .

والآثار المنقوشة ، وهي تكثر خاصة ايام الملوك الاشوريين ، تظهرهم لنـــا في الحرب او في الصيد والقنص — وهي الاعمال التي تنوب مناب الحرب — او الحفلات الرسمية . ويبدو لنا فيها

العاهل كرمز اكثر مما يبدو كفرد . وحتى في المشاهد العنيفة فلا تحور حركاته ، وهي دائماً دليل النصر ، شيئاً من جلالة الملك التي تبدو باكثر وضوح في مشاهد الاستعراضات . فله اللحية والشعر المجعد ، يكلل هامه التاج العالي وسط رجال حاسري الرأس ، يتربى بالحلى ويرتدي ثياباً طويلة مزركشة ، تحميه مظلة ويتبعه رهط من الخدم يلوحون بالمراوح . وقد يجلس على العرش ، او يقف ، ورجلاه على الأرض ، حاملاً عصى طويلة ترتفع حتى الوسه ، او ينتصب على عجلة تجرها الاحصنة المزينة . وهو يمثل ، في كل حال ، بعظمة وثبات حنان ، جبروت الانسان الكلي القدرة الذي انتخبته الآلهة ليكون « مندوبها » على الأرض .

الفصل الثاني

الأشكال الاجتماعية والاقتصادية

القصر

يؤلف القصر الملكي ، بطبيعة الحال ، عالماً على حدة في حياة مدينة بلاد مابين النهرين . ويسكن فيه جمهور اجتماعي تشده الى العاهل عرى تتعدى الوشائج التي تصل الاقرباء بعميد الاسرة او العبد بسيده . ولقد وجد المنقبون في اور ـ اور في بلاد الكلدان حسب التوراة، ووطن ابراهيم ـ قبوراً لا يتعدى تاريخها اوائل الالف الثالث غنية جداً بالاشياء الثمينة مما يحمل على الاعتقاد بان بعضاً منها اقله هي اجداث ملكية . ويحوي كل منها على اقل تقدير هيكليْ عظام ، ومراراً عشرات وعشرات رتبت على احسن دقة ونظام . ولم تحدث دون شك اعمال عنف او مشاجرة. وهناك اشخاص يضحون طوعاً بحياتهم ـ ولافرق انفرضتها التقاليد ـ وهم ينتمون الى حاشية الملك ليرافقوه في عالم غير عالمنا الارضي. ولم يعثر على اي قبر يرتقي الى عهد اسبق في بلاد بابل او أشور لم تمتد اليه اليد . ولكن تذكر لنا بعض اللوحات الأشورية الطقس المتبع عند دفن العاهل : وهي تفيدنا بانه كان يجري في الوقت نفسه دفن « سيدة القصر » اعني الزوجة الاصيلة . ولم يجر هذا الدفن الا صورياً لربما اذ نعرف ، في اواخر القرن التاسع ، ملكة ـ امّا اصبحت وصية في بدء ولاية ابنها وهي سامون ـ رامات التي دخلت الاسطورة باسم سميراميس . ولكن هذا كاف للتدليل على ان العادات القديمة تركت لها اثراً زمناً طويلاً ولو بشكل ملطف .

وهذه المجموعة الاجتماعية هي كثيرة العدد ومختلفة التركيب اذ نجد فيها عمالا ينتسبون الى كل المهن ، واجراء ، وكتبة ، وصناعيين ، ورحال اعمال ، وفلاحين ، ورعاة ، وحراس مخازن الخ وكلهم يخضعون لاوامر ناظر اذ ان الاملاك الملكية المشتتة والمتشعبة الخيرات تجعل من القصر نوعاً ما مشروعاً اقتصادياً واسعاً تساهم ارباحه بتثبيت وتقوية سلطة الملك المادية .

ويسلخ الملك عن املاكه اقطاعات يخصصها للملكة ولاولاده الملكيين ، كما انه يقتطع ايضاً منها ، اقله زمن حمورابي ، اقساماً يوزعها على سبيل المكافأة ، لجنود اتخذوا الجندية مهنة لهم او لموظفين. ويُستثمر ما تبقى من هذه الاملاك مباشرة حسب اوامر الملك الذي يتصرف كالملك كبير يهتم بارباحه. انه لا يوجد بكل تأكيد اي تمييز بين عقار يملكه الفرد وآخر يخص التاج. لا بل

يحصل التباس اكيد بين املاك التاج والدولة ، اقله فيما يختص بالافعال المادية ذات المنفعة العامة . وان سهل التمييز نسبة الى الضرائب والجزى ، فالعكس مؤكد ان اعتبرنا اعمال السخرة التي تفرض على المواطنين لحفر قنوات الري والاعتناء بها وبناء الطرقات والنقل ومصادرة الحيوانات الحلوبة وحيوانات الجر والمراكب والعجلات . وعلى كل فان الاهراء حيث تكدس غلال املاك العاهل والدولة مشتركة . وللملك الحق بان يتعاطى اعمال الصيرفة ، ويقرض مالا لقاء فائدة ، ويشترك في مشاريع خصوصية . ومع انه مالك كبير لاراض وقطعان ، وصاحب معامل فهو ايضاً رأسمالي واسع الثراء . وهكذا يلعب الملك في مختلف المرافق دوراً اساسياً في حياة البلاد الاقتصادية .

الهيـــكل

وتقوم الهيـــاكل ، نسبة لعددها ، بدور اشد خطورة . فلكل مدينة عدة هياكل : فقد وجـــد في لاغاش في اوائل الالف الثالث نحو خمسين هيكلاً . وتصنف هذه الهياكل درجات وفئات ، وعلى كل تعود الاولوية الى هيكل الإلهة سيدة المدينة . وهذا المعبد هو عادة اكبر المعابد واكثرها زينة الا اذا عطف على هيكل آخـــر ، وبصورة استثنائية ، ملك ينتسب الى مدينة اخرى . وهذا الهيكل هو اكثر الهيـــاكل غنى ، لذا فهو احسنها تجهيزاً من حيث رجال الكهنوت ورجال الادارة والاستثمار .

وهكذا يكون كل هيكل ، على غرار القصر ، عالماً مستقلاً . ونسبة الى بعض الفئات التي تتلاقى مع نشاط طقسي او مهام اخرى بعض المرار، فان المجتمع الذي يتخـــذ له من الهيكل مركزاً رئيسياً بصبح كأنه طبقـة مقفلة. وهناك اساليب وفنون لا يتعلمها المرء الا في الهيكل، وفي عهـد الصبا . كما توجد مهن تبدو وكأنها لا تمت الى الدين بصلة ولكنها تستوجب مع هذا ، بالنسبة الى الهيكل ورجـــال الكهنوت ، معرفة بعض الطقوس وممارستها ؛ وعلى النقاشين والنساجين والخبازين وحتى البوابين ان يقفوا عليها. ولا شك في ان اعمال الزراعة وحدها تستثنى من هذا الواجب .

ويلاحظ المرء ، على كل حال ، عدداً وفيراً من المهن يلتحق اربابها بالهيكل . وتتمثل فيهم كل الطبقات الاجتماعية ابتداء من العبد حتى ابن الملك او ابنته، ويكوّنون ، تحت رعاية الكاهن الاعظم او الكاهنة الاولى ، جماعة كبيرة تحيا لخدمة الاله ، وتعتاش من ثم من مدخوله ، اعني من غلة ارزاقه او مما يفيض عن التقادم والذبائح .

ولكن لا يستنكف افراد هذه الفئات المختلفة من الاندماج في الحياة المدنية ، فهم لا يأتون بثرواتهم الشخصية الى الهيكل الذي ينتمون اليـــه ويملكون ارزاقاً شخصية يستثمرونها كما يحـــلو لهم .

حتى ان اصحاب الحرف الذين يعملون لمصلحة الهيكل يشتغلون ايضاً للجمهور لقـاء أجر ان سنحت الظروف .

لا يخلو هذا التنظيم من خلل . فباكراً جـــداً بدأ التذمر من الالتباسات التي لا مفر منها . ومنذ الالف الثالث افتخر احد ملوك لاغاش بانه وضع حداً نهائياً للخـــداع الذي استخدمت بموجبه « ثيران الاله » لاعمـــال زراعية في ارض يملكها شخصياً احد الكهنة . ومع الزمن اصبحت هذه الوظائف الدينية كأنها حق ارثي : فيرهن الواحد او يبيع او يهب لمدة اشهر او ايام هذه الوظيفة او تلك ، لا بل انتهى بهم الامر مراراً في اعمال تقسيم الارث او اجراء البيع الى تجزئة يوم من الخدمة اجزاء عدة . واستمرت هذه العـادة حتى في العهد اليوناني ، في بلاد بدل على اقل تقدير ، بعد ان كان قد انهار الاستقلال السياسي . وتدل ضمناً هذه المواقف بان موضوع كان يتعلق بفوائد تلازم وظيفة ما . ومع هذا فلربما فرض تحصيل مثل هذه المنـــافع القيام ببعض الموجبات . وعلى كل يجب الرجوع الى فترة انتقالية غدت فيها الوظيفة ، كوحدة بما لها من حقوق وواجبات ، موضوع مساومة ، مع مـــا سبق ذلك من تطور يسهل تصور مراحله .

وهل غدت املاك الاله موضوع استملاك مماثل ؟ ان الامر ممكن اذ في زمن متوغل في القدم اقتطعوا منها حصصاً ووهبوها الى الافراد . وقد استثمر هؤلاء العقارات تلك ليؤمنوا معيشتهم ومعيشة اسرهم . ومع الاحتياطات المتخذة فلا يجب استثناء هذه الحصص من مبدأ اغتصاب اراض وزعها الملك على جنوده او موظفيه .

ومهما تقلبت الظروف يحتفظ الهيكل باملاك يؤجرها من الغير واخرى يستثمرها مباشرة بما يملكه من ادوات وحيوانات ويد عاملة تعززها اعمال السخرة ، ويتم كل امر باشراف النظّار . وللهيكل ايضاً مصانعه يصنع العمال فيها ما يلزم لطقوس العبادة او لرجـــال البيعة . وله ايضاً مخازن ومستودعات وكنز ورجال اعمال .

وهكذا تهيمن الهياكل ، في مختلف المرافق ، على قسط وافر من حيـاة البلاد الاقتصادية . ويتشابك تشابكا متيناً نفوذهم المادي مع امتيازاتهم الروحية . وقد يسخر الهيكل احيـــاناً سلطانه هذا للخير والرحمة ، اذ تفيدنا نصوص ترتقي الى عصر حمورابي بان الهياكل تقدم قروضاً بفائدة تقل عن الفائدة القانونية القصوى ، لا بل تنقص عن الفائدة المعتدلة . وتقرض الهياكل ايام المجاعة الحبوبَ دون ربى ، وتسلف العبد الذي يريد ان يبتاع حريته . ويأمر الملك ايضاً بان يقرضوا الجندي الذي وقع اسيراً في يد العدو والذي يعجز ، نسبة لفقره ، عن دفع الفدى . وبعض اعمال الرحمة هذه تلقائية ! وعندما فرضها حمورابي فرضاً اكتفى بتثبيت تقاليد متبعة . وهكذا يسعى الهيكل لتأمين مصالح الاله والقيام بافعال رحمة خليقة به . وقد قرأنا اعلاه كيف حدد حمورابي مشيئة شمش .

المجتمع العلماني

ان طرحنا جانباً عالميْ القصر والهياكل فاننا لا نعرف مثلاً معرفة حسنة المجتمع الميزوبوتامي الا في عهد حمورابي ، وخاصة من خلال قانونه . ويكوّن هـــذا

التشريع النص الاساسي الذي يسمح لنا بتفسير مستندات لا عد لهـــا ، وعقود يختلف زمانها ومكانها. وان وقفنا على نبذ من قوانين اخرى سنها ملوك اور واشنونا وأسين، او ملوك أشوريون من الالف الثاني ، او اذا وجدت بعض نصوص عقود لاحقة في الزمن تكشف لـــا القناع عن اختلافات تتعلق بنقاط خصوصية ، فان الجوهر والعادات لم تتبدل كما يبدو .

ان قانون حمورابي يؤكد بصورة قاطعة وجود ثلاث طبقات اجتماعية ، اقـله في المدن : « الانسان » اي الانسان الكامل اعني الفرد الحر ، « والشخص الذي ينحني » المرؤوس الوضيـع اعني الفرد الذي يتمتع بقليل من القيم ، واخيراً العبد ، ملك شخص آخر ، حراً كان هـــذا الاخير ام مرؤوساً .

المرؤوس

ان الغرابة في هذا التقسيم هو وجود الطبقة الوسطى. اننا نجهل اصلها كما لا نعرف ان كانت قد حصرت فقط في بعض المهن المحددة . وعلينا ان نقـــر بوجودها ونعترف بان القانون وضعها على مفترق الطرق بين الفئتين الاخريين . فالذي يضرب مثلاً ابنـة رجل حر ويسبب لها من ثم اجهاضاً يدفع غرامة تعادل عشرة مثاقيل [1] فضة بينما لا ينقد ابنة المرؤوس سوى خمسة اثقال ، وابنة العبد الا مثقالين فقط . ويظهر هذا التفاوت ايضاً في الاجر المستحق لقاء احدى الخدمات اذ يقبض الجراح الذي اجرى عملية ما عشرة مثاقيل او خمسة او مثقالين تبعاً لفئة المريض الاجتماعية .

العبـــد

ان العبد ، ذكراً كان ام انثى ، يتساوى قانونا مع الشيء المادي الممتلك المنقول ويوسم غالباً . ويجب بتر يد الطبيب الذي يزيل هذا الوسم . ويعاقب معـاقبة صارمة من يساعد او يقبل عنده عبداً هاربا ، لا بل قد يحكم عليه بالموت ان كان الهارب من عبيد القصر . ونسبة الى سلسلة تصنيف الممتلكات المنقولة ينزل العبد منزلة وسطى بين المعادن الثمينة والحيوانات الاليفة . وهو مثل هذه الكائنات يباع ويستبدل ويرهن ويودع . وفي عهد حمورابي غدا الثمن التجاري العادي للعبد الذكر الذي بلغ اشده عشرين مثقالاً ؛ وهذا هو ثمن حمار !... وهو اقل دون شك من ثمن الثور . وتتم مثل هـــذه الصفقات بموجب عقود مكتوبة حسب المتعارف : ويكفل البائع حقوق المشتري ، ان وجد في العبد عيوب مستورة ، وذلك لفترة اختلفت مدتها قديما ولكن جعلها القانون شهراً .

ان حقيقة حال العبد القديمة والتي تركت لها اثراً في معجم اللغة ، نسبت اليه اصلاً غريباً ، فهو اما من الاسلاب او حصيلة عملية شراء قانونية تمت خارج حدود البلاد . ومنذ القدم فعـلاً ولد بعض العبيد في الوطن اما من ابوين عبدين او حتى من ابوين يتمتعان بحريتهما ، لانه ان اعتبر الاولاد الذين هم ثمرة زواج فتاة حرة مع عبـــد احراراً كوالدتهم ، فان الاولاد الذين

---

(١) يزن المثقال ٦ غرامات .

يستولدهم سيد خليلة عبدة لا يعتقون بملء الحق في الوقت الذي تصبح والدتهم حرة ، الا عند وفاة والدهم . وعلاوة على ذلك فانه باستطاعة الآباء الاحرار ان يبيعوا اولادهم ، وللدائن الحق باسترهان مديونه وامرأته واولاده منها . وفي هذه الحالة الاخيرة فمن الحق القول إن القانون لا يقر العبودية الا لفترة لا تتعدى ثلاث سنوات . ولكن مددت هذه الفترة القصوى فيما بعد قانونياً وواقعياً .

ولا يوجد الا حالة واحدة ، وتبدو غامضة — حالة عبد ولد في بلاد بابل واقتيد الى الخارج واعتق هناك — يأمر فيها القانون بالعتق بصورة آلية. ولكن يستطيع العبد دوماً ان ينال الحرية ان وهبه اياها سيده دون مقابل او منحه اياها لقاء مبلغ ما . وكسب الحرية بالمال ، وقد كثر اللجوء الى هذه الوسيلة، يؤكد انه بامكان العبد جمع قنوة ، ولكن لا نعرف كيفية هذا الكسب. ويقدر العبد ان يقترض من الهيكل مبلغاً لا كمال القنوة او ليقوم مقامها . وقد يفرض عقد العتق على العتيق بعض الواجبات نحو سيده ما دام هذا الاخير على قيد الحياة . وللعتق مفاعيل معجلة التنفيذ فيما يختص بالاحوال الشخصية . وكان التحرير يتم ، ايام حمورابي ، في احتفال ديني يطهر اثناءه جبين العبد حتى غدا لكلمة « التطهير » معنى « العتق » .

وكل هذه المعلومات ، وهي ذات قيمة عظمى ولا نرى لها مثيلاً في القرون القديمة الا في المجتمع الروماني ، لا تفيدنا مع هذا لسوء الحظ كيف كان يحيا بالواقع افراد طبقتي المرؤوسين والعبيد .

وتسري هذه الملاحظة ايضاً على الاسرة .

تشريع الاسرة

يحقق نظام الاسرة للامرأة الاستقلال لشخصيتها القانونية خصوصاً في موضوع ادارة املاكها ، وهذا امر يسترعي الانظار . والذي يقدمه الزوج المقبل لحميه عند اعطاء الوعد بالزواج لا يصبح ملكا للزوجة ، ولكنها تبقى المالكة الوحيدة للبائنة التي تجلبها لزوجها . اما الهدايا التي من الطبيعي ان يقدمها الزوج لزوجه فلا تستطيع هذه الاخيرة ان تبيعها ولكن لها ملء الحق بالانتفاع منها . وللامرأة وحدها حق التصرف بكل حرية بما هو ملك لها من اموال منقولة او ثابتة . وللعقد الذي هو شرط ضروري واساسي لكل زواج صحيح ان يمنع القاء القبض على شخص الزوجة من قبل دائن زوجها . ولكن لا يسري عادة هذا البند الا على الديون التي توجبت على الزوج قبل زواجه . ولكن ينفذ مبدأ التكافل والتضامن للديون التي تعقد بعد الزواج . ولا يستأثر اذ ذاك الزوج بادارة المنافع المشتركة بل نرى الزوجة تتدخل ، اقله كشاهدة ، عند عقود البيع . وان كان الزوج جندياً ، وطلب للخدمة فيعود اذ ذاك للزوجة حق ادارة املاكه ، ان لم يكن له ابن بلغ اشده ، وتصبح الزوجة في مثل هذه الحالات مالكة لثلث الريع .

ويستطيع الزوج دون شك ان يطلق امرأته ، ولكن القوانين تحميها اذ ذاك ضد قراره

التعسفي ، اذ عليه ان يلجأ الى المحاكم ويثبت شكواه بادلة عادلة وقوية . وعلاوة على ذلك فان سوء سلوك الزوج يعطي الزوجة الحق باقامة دعوى مماثلة لتعود الى عند ذويها . وفي كل من الحالتين تأخذ معها كل ما يخصها وغالباً ايضاً تعويضا تقدره القوانين . ويبقى جرم الزنى المشهود : اما جرم الزوج فلا يذكره القانون ، كما نعلم ، بينما يمكن القاء الزوجة المجرمة مع غريمها الى الماء ، اذا لم يصفح عنها زوجها . وهذا ، على ما يبدو ، هو التفاوت الحقيقي الوحيد .

ونظام الزوجة الواحدة هو القانون ، يحد من شدته حق تأمين ذرية للرجل ، لذا فان عقم الزوجة ومرضها هما من اسباب الطلاق الشرعية كرفض الامرأة القيام بواجباتها كزوجة وربة بيت او تهاونها في ادائها . ويحق للزوجة العاقر ان تهدي زوجها عبدة بمثابة خليلة . ولربما هدف هذا التدبير الى منعها من اتخاذ اي تدبير قبله ان اتخذ له السراري ، اذ ان القانون ، في مثل هذه المواقف التي لا تشرف ، يكتفي دون شك بالتلطيف من افعال لا مفر منها . ونعرف حوادث انجب فيها الرجل اولاداً من زوجه ومن خليلته ايضاً . ولا يمكن بيع العبدة التي غدت موضوع انتخاب كهذا ، لا بل تعتق مع اولادها عند موت سيدها . ولكن عليها مع هذا ان لا تنافس سيدتها وان تنجب اولاداً . وان اخلت باي من هذه الشروط يحق اذ ذاك للزوجة ان تعيدها الى العبودية .

ويسمح القانون اخيراً للزوج ، ان لم ينجب اولاداً من زوجته او من خليلته ، وفي مثل هذه الحالة فقط ، ان يدخل الى بيته زوجة من رتبة ثانية . وعلى هذه الزوجة ان تحترم افضلية الزوجة الاولى . وقد ينص صراحة عقد النكاح الثاني على ان الزوجة الثانية « تغسل رجليْ الاولى! » .

وبعد ايجاد الحلول لمختلف هذه الحالات تبقى مسألة التبني ويتم التبني بموجب عقد . وان جرى وفقاً للاصول ودون اي ضغط فان القانون يحمي المتبني في حال جحود المتبنى او والديه الطبيعيين . فالمتبنى الذي يتنكر لاسرته الجديدة يباع كعبد ، ويستطيع المتبني ، ان رزق الاولاد فيما بعد ، ان يفسخ العقد ولكن شرط ان يعطي للمتبنى الذي يرذله ثلث الحصة الارثية القانونية باستثناء الاملاك الثابتة .

ويحدد القانون بدقة بالغة قوانين الارث ، فان كل ما تملكه الامرأة ، حتى ولو استرجعته معها عند عودتها الى اسرتها ، يعود الى اولادها . ولكن يوجد تمييز وتفريق نسبة الى المهور بين الاولاد الذين هم ثمرة عقود زواج متتالية . والشيء نفسه يقال عن اموال الوالد . ومع هذا فبوسع الوالد ان يهب الهبات لامرأته او لاي من بنيه او حتى لشخص غريب عن الاسرة . ولكنه لا يستطيع ان يحرم من الميراث اياً من اولاده الا اذا سمحت له المحاكم بذلك بسبب ذنب خطير اقترفه المحروم . ويجري تقسيم الارث بالمساواة التامة ، اقله بين اولاد الزوجة ، لا بل يأمر القانون بالاحتفاظ بما هو ضروري لهدايا العرس التي سيقدمها العزب ، ويحرم من الارث اولاد الخليلة ان لم يكن الوالد قد اعتقهم وهو على قيد الحياة . وان كان قد اعتقهم فعليهم

مع هذا ان يدعوا لاخوتهم افضلية الخيار بين الحصص . وتحرم البنات من الارث ان كن قد اخذن البائنة والا فلهن حق استثمار حصة ما .

وتكفي هذه الايضاحات ، ومن السهل الزيادة عليها ، لاظهار روح قانون الاسرة الذي يهتم الاهتمام الدقيق بكل ما هو موضوع ملكية منقولا كان ، بما في ذلك العبيد ، ام ثابتاً .

واستناداً الى البقايا التي وجدت من قانون يرتقي الى الالف الثاني ، تظهر الاسرة ، عند الاشوريين ، اقل تماسكا : فيذكر مثلاً بانه باستطاعة الزوجة ان تعيش في البيت الوالدي ، حيث يزورها زوجها ويقدم لها كل ما تحتاج اليه . ولكن الفرق الاساسي هو ان للمرأة اهلية مدنية اقل مدى . فلا نراها فقط الا في القرنين الثامن والسابع ، ايام سلالة السرجونيين، فريقاً فيعقود البيع او افعال مماثلة ، وذلك بصورة اكثر ندرة مما هو الحال في بلاد بابل . ويعاقب القانون كل من يقرضها حتى ولو كان غريباً عن الاسرة ويجهل بانها متزوجة . ويمكن طلاقها دون تعويض او لجوء الى المحاكم . ويجبرها القانون ، بعد موت بعلها ، على الزواج من اخيه او من احدالاولاد الذين انجبهم من زواجه الاول . ويحق للزوج ان يتخذ خليلة او خليلات عدة ، ويرفعهن الى مرتبة الزوجات .

ان قانون حمورابي سبق بقرون عدة التشريع الاشوري ، ومع هذا فهو يعبر بصورة جازمة عن حالة اجتماعية قد يعتبرها المرء اكثر تطوراً . ولكن في هذا المجال يجب اعتبار الطبع القومي . فلا عجب من ثم ان بقيت الامرأة في مستوى قانوني دون مستوى الرجل عند شعب حربي كالشعب الاشوري .

ويسهل تصور ما ينقصنا في هذا الجانب او ذاك . ومن الطبيعي بان مجموعة قوانين ، حتى ولو طابقت دوماً — مع ان بعض العقود تنقض هذا القول — الحقيقة العملية ، تعتبر على مستوى واحد اوضاعاً تتوفر كثيراً في حياة مجتمع مع اوضاع اخرى تعد نادرة وشاذة ، هذا ان لم نقل مجرد تخمين وتكهن . والاخلاق التي تنتج عن وضع وسط بين هذه النظرية وتلك لا تنعكس بصورة واضحة في القوانين التي تبقى دون وزن ان استثنتها . ويلزم لاحياء الحقيقة امور غير العقود التي لا عد لها والأسناد القضائية التي قد يأتي تنظيمها المنطقي نتيجة المصادفة . اعني مراسلات شخصية وطرائف وقصصاً . ان المستندات الكثيرة عن تاريخ بلاد ما بين النهرين تساعد المشترع اكثر من المؤرخ .

الحياة الاقتصادية : العمل الرسمي

يدلنا كل ما تقدم على اهمية وقوة وتنوع الحياة الاقتصادية . ويعتقدون بانه من واجبات المؤسسات الجماعية الاساسية السهر على هذه الحياة وتنظيمها لتأمين ازدهارها وابقائها على مستوى من الاستمرار العادل .

وتهدف العبادة في الدرجة الاولى الى استجلاب عطف وحدب الآلهة على الاعمال التي تؤمن

للانسان طعامه ورفاهيته . ويعطي المثل والقدوة مالكو الاراضي والهياكل والقصور واصحاب الكنوز والخيرات مهما اختلفت انواعها . فهم يتأثرون مباشرة بالاردهار العمومي لما تغـــدقه عليهم من خيرات مادية فضائل التقوى والطاعة وعرفان الجميل . لدا فهم يقومون بدور منظمي الحياة الاقتصادية . ولكن هذه النظرية هي أشد وطأة في مصر : اذ لا نجد اثراً لاقتصاد موجّه ، ولا يعتبر الملك او الآلهة المالكين الوحيدين لجميع اراضي البلاد التي يصبح المزارعون فلاحيها . ولكن في بعض المرافق ، يشتد تدخل الدولة بصورة اوضح واعمق مما يجري في وادي النيـــل ، حسب معرفتنا اقله ؛ ويعتبر قانون حمورابي ، بعد ان حدد الراتب والثمن في مجالات عـــدة ، اوسع تجربة ، في عهد قديم ، لتثمين رسمي ، ونود ان نعرف ، استناداً الى وثائق اكثر عدداً وأشد وضوحاً ، فعالية هذا العمل في الحياة اليومية وتطوراته التاريخية .

الزراعـــة

تتبوأ الزراعة مركزاً مرموقاً ، الاول دون شك ، في حقل اهتمام المسؤولين عن مجموع الامة ، وقد مسحت الارض ، باكراً جداً ، وعدا ضرورياً تسجيل كل تغيير يطرأ على تقسيمها او ملكيتها او حتى على طرق استثمارها. وتحفـــر قنوات التجفيف والري ويسهر على صيانتها تحت اشراف السلطات ، تبعاً لنظـام اعمال سخرة لا يعفي منها الا امتياز ملكي . ويدير مهندسون جهابذة مكاتب فن ودراسة ليضعوا تصاميم احواض وخزانات المياه وقنواتها ، كما تنظم القوانين والتقاليد اسس توزيع المياه المنعشة ، ومعاقبة كل اهمـــال او غش يلحق الضرر بالمجاورين . ويحدد القانون ايضاً شروط المزارعة وواجبات المزارع وكيفية تقسيم الاضرار التي تسببها تقلبات الجو بين المالك والمزارع او المستأجر ، ومبلغ اجرة الفـلاح والبقـار والراعي، وبدل استئجار ثور او حمـار ، ومسؤولية الحوادث او الخسائر التي تحـل بالقطيع ، وعملة العامل اليومي في الحقول .

وتكشف هذه الدقة التي تصل غالباً حد المغالاة عن نظم حياة زراعية شديدة التطور ومبدإ الملكية العقارية المصغرة جداً، وترتيبات لا حصر لها في كيفية ملكية وتوزيع الاراضي الزراعية. ومما لا جدال فيه بان الارض ، في منطقة بابل ، مهد حضارة بلاد ما بين النهرين ، غدت المظهر الاول للثروة، واثارت المطامع، وبسبب انتقالها من يد الى يد خلقت المشاكل التي لم يستطع حلها الا الهياكل والدولة . لذا اصبحت الارض المادة التي اجريت عليها اقدم التجارب لحيـاة اقتصادية تخلق علاقات بين السكان وتستحث مخيلتهم .

وتمتعت ، عن جدارة واستحقاق ، بلاد بابل طوال الازمنة القـديمة، وهي الارض الرسوبية المروية ، بشهرة حصب اسطورية تفوق شهرة تربة مصر. ولقد افاد هيرودوتس وسترابون بان الحبوب كانت تعطي غلة تعادل /٢٠٠/ او /٣٠٠/ للوحدة ، وتسمح لنا حقا المستندات والوثائق الاعتقاد بغلة عادية تفوق ٥٠ للشعير ، هذا الصنف من الحبوب الاكثر شيوعاً والذي غدا عياره مقياساً لمعظم الاثمان والتعويضات التي حددتها القوانين. وحسب اقوال هيرودوتس ايضاً فان

نبتتي : السمسم ، الذي يستخرج الزيت من حبه ، والجاورس اصبحتا كالشجيرة ! ولتأكد هيرودوتس بان احداً لن يصدقه ، استنكف من الاشارة الى طول هذه الشجيرة . ويعترف «ابوالتاريخ» بعدم وجود الكرمة وشجرتي الزيتون والتين ؛ ولكنه ، وقد حذا حذوه سترابون ، يشدد في الكلام على عدد شجر النخيل وتنوع المنافع التي تؤديها : انمار قد تعتبر المادة الغذائية الاساسية ، وخمرة ، وعسل ، وخل ، والياف للنسيج ؛ حتى ان نواة البلح تصلح وقوداً للحداد ، وهي ان طحنت غدت علفاً للحيوانات » ويقال ، كما يعترف سترابون ، بان اغنية فارسية تعدد نحو ٣٦٠ استعمالا لشجرة النخيل » .

لذا فان اساليب لبقة ترشد عمل الانسان وتساعده ، وقد بلورتها حقب عدة من التجربة والاختبار . فقد عرفوا اثارة تلقيح شجرة النخيل ، واستطاعوا ان يجعلوا من الثور البري ذي القرون الطويلة الملتوية ، ومن الحمار ، والخنزير ، والضأن ، وطيور القن حيوانات داجنة ، وهم يحاربون ، مستندين الى المهارة والقوة والحيلة ، الحيوانات المضرة التي تعيش في المناطق المجاورة من الصحارى والجبال او في مناطق المستنقعات . ولم يكتفوا باستعمال المحراث الذي تجره الحيوانات بل عرفوا ايضاً المذرّة .

ان هذه الاوصاف الجميلة تنطبق على بلاد بابل ، اعني السهل المنخفض الذي حبته الطبيعة . وكسبّب ومُسبب في الوقت ذاته للازدهار الزراعي الذي لا يعكره احد ، فان كثافة السكان ، التي لم تخضع لاي احصاء ، تصل الى نسبة كبيرة جداً ، يؤكد ذلك عدد المدن التي تذكرها النصوص والذي يفوق عدد المدن التي عثر عليها . وتتغير الحال في المناطق الاقل غنى ، اعني مناطق الجبال والسباسب . ويغدو الصيد من اساس وسائل التغذية في كل مكان يجري فيه نهر او تنساب قناة . ويذكر هيرودوتس بان ثلاث « قبائل » على شاطىء الخليج الفارسي ، وهو من اكثر مناطق الدنيا فقراً وجدباً ، لا تأكل الا سمكاً مجففاً في الشمس او مسحوقاً ليصبح دقيقاً . وهناك بدو يتنقلون سعياً وراء المراعي لقطعان الماعز والضأن والجمل . وهناك سكان الجبال الذين لا يجنون الا غلالا ضئيلة ولكنهم يتعاطون الصيد الذي يصبح عندهم من ثم ضرورة مستمرة والذي يغذي فيهم النزعة الحربية ، بينما يعتبر في مناطق اخرى لهواً نبيلاً لا بل محصوراً بالملك . وفي فترات مختلفة تصبح هذه الجماعات ، التي تعيش على الحدود ، والقريبة من مواسم السهول الغنية ، خطراً عظيماً على رجال الزراعة الذين يعرفون الاستقرار . وبقيت هذه الجماعات ، رغم الحملات التأديبية المتكررة ، سبب ازعاج مستمر للدول النظامية التي لا تتغاضى عن اي تجاوز على القانون او عصيان .

العمل الصناعي

ان مهارة الصناعيين لا تقل عن مهارة الفلاحين ودأبهم على العمل . ويكفي ان نتفحص ما وجد في قبور أور الملكية لنتأكد من دقة الصناعات اليدوية في اعمال على الخشب والمعادن ، خاصة منذ اواخر الألف الرابع او اوائل الألف الثالث . فهم عرفوا

خمسة معادن : الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص . وقد اتقنوا تنقيتها من الشوائب والاقذار ، وقاموا باعمال المزج واللحام والصقل والصياغة والترصيع والتزيين بالمينا . وقد استبدل الخزف بالمعدن للاواني الثمينة . ومع الزمن فان الجمهور الذي يتعاطى مع الهيا كل والقصور التي تغذي المصانع المختصة بالنسيج والتطريز والصياغة والنقش والحفر الخ، ساعد على تطور الفنون اليدوية وتقدمها المستمر . والتدريب على هذه الاعمال ، وقد اصدر لها حمورابي تشريعاً دقيقاً ، يؤمن توارثها .

المواد الاولية

ان ما تحتاج اليه بلاد ما بين النهرين لتتخذ صناعاتها المدى الواسع الذي يبرره كالها وجودتها هو المواد الاولية ، وخاصة المواد المعدنية . ويصر المؤرخون اليونان على ذكر « الزفت » اي القار في حالته الجامدة او شبه الجامدة في بلاد بابل ، الذي تطلى به السفن او تشد به آجر الحيطان ، وان كان سائلاً ، النفط الذي ينبع من ارض سوسه والذي يستعمل زيتاً لاشعال القناديل . وهذه ثروة جوف الارض الوحيدة تقريباً ، اذ لا اثر للمعادن او انها سرعان ما نضبت ، لا بل تنتقص المنطقة الاكثر خصباً وسكاناً ، اعني سهول الاودية الرسوبية ، الخشب والحجارة .

لذا على المرء ان يسعى لاستيراد هذه المواد عندما يصل الى درجة من الحضارة التقنية . ومنذ تاريخ متوغل في القدم استوردوا بعض هذه المعادن من امكنة بعيدة جداً : فالعاج والحجارة الكريمة من الهند، والنحاس من قبرص وارمينية او آسية الصغرى ، والقصدير من القفقاس لربما . ولكن قد يتعرض التموين بهذه المواد الى مخاطر كنفاد المعادن او انقطاع سبل المواصلات . ويختلف العلماء بخصوص تحديد تاريخ مقابر اور الملكية حيث الشبه، وطبقة لاغاش حيث ادوات النحاس ، ولكن ليس من المستحيل ان تكون اور قد استحصلت على القصدير وقد خلت منه لاغاش في زمن لاحق .

ولدينا دليل على تصدير الحمير والقماش والاشياء المصنوعة . غير اننا لا نجد اثراً لتصدير المواد الغذائية . ومع هذا فمن المؤكد بانه كان سهلاً على بلاد بابل ان تقدم كمية كبيرة من هذه المواد . ولكن تسعى البلاد الغريبة جهدها لكفاية حالها بحالها وتستنكف من ثم عن دفع ثمن هذه المواد الغالي اذ لا تجري التجارة الا على بضائع ترتفع اثمانها لما يطرأ عليها من مصاريف باهظة نتيجة للنقل وللاخطار المحتملة وللمضاربة .

وسائل النقل

تطرح ضرورة التصدير الى البلاد البعيدة على بساط البحث مشاكل النقل . وفي بلاد بابل يحل وجود القنوات هذه الصعوبة باهون الطرق فمنذ اوائل الالف الثالث غدت المراكب تتسع لحمولة ذات وزن محترم (اكثر من مائتي هكتوليتر !) . وهي تسير بواسطة المجذاف او الشراع . ويحدد قانون حمورابي بصورة واضحة شروط بناء هذه المراكب وتأجيرها واستخدام ربابنتها . وتصلح الانهر ، خاصة الفرات ، لاسفار اكثر بعداً . ويلعب « الرصيف » دوراً رئيسياً في المدن التي اقامها الملوك الاشوريون او التي جددوا بناءها ،

اذ تصبح الكلمة التي تعني « رصيف » جزءاً من اسم المدينة . وهكذا تأتي الاخشاب الكبيرة التي تنقلها القوارب او الاطواف من آسية الصغرى او سورية ، وتستخرج الاحجـــار الكبيرة من الجبال الشمالية – الغربية او الشمالية -- الشرقية .

ولكن لا بد من اللجوء الى وسائل النقل البرية . مع ما يرافق ذلك من صعوبات تولدها حالة الطرق السيئة وشروط الجر البدائية . ويحصر استعمال الحصان او العجلة تقريباً بالاعمال الحربية فقط . ولضرورات الحياة العادية يلجأون اذن الى حيوانات الجر كالحمير والبغال والجمال . واذ كان الامن شبه مفقود على الطرق في المناطق الصحراوية او الجبلية يجتمع التجار قوافل قوافل تبعاً لتقليد سيستمر الشرق عليه آلافاً من السنين .

التجار ومستعمراتهم

استثمرت بلاد ما بين النهرين موقعها الجغرافي ، وهو اقـــل عرلة من موقع مصر . وترجـــع علاقات بلاد ما بين النهرين مع اقطار بعدت عنها كثيراً كمناطق وادي الاندوس والقفقاس وآسية الصغرى الغربية الى اقدم العصور التاريخية والى اكثر عهود ما قبل التاريخ قدماً . وبصورة شبه مستديمة ، باستثناء فترات سببتها هجرة الشعوب اكثر من الغزوات الحربية ، فقد استمرت هذه العلاقات مسهلة والحالة هـــذه تبادل الخبرات وتلاقي الحضارات وتشابك العناصر العرقية المتباينة .

وقد اثبتت المستندات المدعوة « اللوحات الكبادوكية » بانـــه في اواخر الالف الثالث ، كان يوجد في اواسط آسية الصغرى ، في ضواحي جبل « أرجيه » ، جماعات من التجار الاشوريين يتعاطون اعمال السمسرة للاستـــيراد والتصدير . وهم يديرون شؤونهم كما لو كوّنوا جمهوريات صغيرة مستقلة ، « الارصفة » ، ويبقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين . وان اختفت هـــذه المؤسسات دون ان تبقي لها اثراً فقد غدا لسواها ديمومة اطول عمراً . ومما يثير الدهشة ان يلاحظ المرء في بدء القرن السادس وجود يونان في مملكة نبوكدنصر ليس لهم صفة المرتزقـــة ، اذ تشير مستندات تجارية الى وجود تجار « ايونيين » في بابل . ولكن يصعب على المرء خاصة ان يفهم توسع الاراميين الآتين من السباسب الممتدة بين دجلة والفرات ، دون ان يتبادر الى ذهنـــه دور الوسطاء في حياة اقتصادية فتحت المجال رحباً للتبادل بين الاقطار لا بـــل بين الدول . وسنجد في هذه الدراسة اكثر من مناسبة للاتيان على ذكرهم .

تنظيم المعاملات

يولد اتساع العلاقات الاقتصادية المختلفة الاشكال ، وذلك باكراً جداً جداً ، اشكالا متطورة للتنظيم التجاري حتى والمصرفي .

والقرض لقاء فائدة هو موضوع معاملات عادية ، لجهة الغلال كان ام لجهة المال . ويعـــين القانون حد الفائدة الاقصى منـــذ الالف الثالث . وان اعتبرت الغلات الزراعية – وتذكر النصوص « الشعير » ، ولكن اتخذت هذه الكلمة مدلولا واسعاً – فالفائدة هي ٣٣,٣٣ بالمئـة

سنوياً ؛ وان اعتبر المال تبلغ الفائدة ٢٠ بالمئة فقط . ونعرف بعض حالات نادرة جـــداً تفوق الفائدة الحقيقية هذا الحد ، وحالات كثيرة جداً تنقص عنـــه . وهذه الفائدة هي في هبوط مستمر ، اقله في بلاد بابل الاكثر انتاجاً . ففي العهد البابلي الجديد لا تتعدى الفائدة العادية للشعير الحد الذي قرره حمورابي للمال. وعلاوة على ذلك، ومنذ القدم ، فان على القصر والهيكل واجباً معنوياً ، وهو ان يظهرا تساهلا وحدباً اكثر من الافراد . وهكذا فقد اكتفى احـــد الهيا كل بفائدة تبلغ فقط ٦ بالمئة ، كما استلف الفقراء والمرضى الحبوب دون اي فائدة .

وهناك ايضاً امثلة اخرى عديدة عن اعمال عادية : كالايجار والرهن والكفالة ، وفيما يختص بالتجارة ، الشراكة لمدة قصيرة او طويلة ، وفي هذه الحالة ، المحاسبة في اوقات محددة ، وشركة المضاربة ، والسمسرة والتوكيل الخ .. وتحدد القوانين شروط هذه الاعمال ، كما فعلت للدين ، وتستدرك حالات عدة مختلفة .

ويتم كل عمل بموجب عقد ينظم ويوقع حسب الاصول ، مع ايضاحات صريحة ، وذلك امام شهود يوقعون اختامهم، وغالباً ايضاً ، خاصة في مجال الديون، امام موظف يحمي اشرافه المديون ضد قساوة المرابي الذي يستغل الفرص للكسب . فرجل الاعمال الذي يخضع له مستخدمون وعملاء هو شخص له اهميته في مجتمع بلاد ما بين النهرين وحياة شعوبها . واذ يكون غالباً وكيلا عن الثروة الملكية او الالهية فهو يعمل ايضاً باسم رجال احرار آخرين او باسمه الشخصي ، وهو يعتبر ، منذ السلالة البابلية الاولى ، جد الصيرفي العصري .

المعايير والقيم

تسهيلاً للتبادل وتبسيطه لم ينقص ذاك المجتمع سوى معرفة النقد . وقد عوض عنه ، بصورة تزداد حسناً او تقـــل ، باستعماله الشعير والمعادن ، كمعايير للثمن والقيمة . ففي اول الامر لجأوا الى النحاس فقط ، وعند الاشوريين الى الرصاص غالباً ؛ ولكن بشكل مستمر ، خاصة في عهد حمورابي ، استعملوا الفضة التي يضاف اليهـــا الذهب ، بكميات قليلة للتعامل مع الغريب . وللهيا كل والقصور مكاييل ومعايير معينة ، وينص القانون على معاقبة الغش . ويتعاملون بالمعدن على شكل سبائك او صفائح او حلقات ، قـــد انتهى الامر بهم الى ختمها بختم للدلالة على نقاوتها . ولكنهم لم يسكوا قط نقوداً معدنية ، وقد حفظت الاقـــدار هذا الاختراع للحضارات الغربية .

وتظهر بعض النصوص بان نسبة التقدير ، حتى بين البضائع المتخذة كمعايير ، غدت عرضة للتغيير. وقد يحمل الحصاد على انزال كمية الشعير التي يمكن الحصول عليها بوزن من الفضة (عادة هكتوليتر واحد لكل ٣٫٣ غرامات من معدن الفضة النقي) الى النصف او اكثر. وتزداد نسبياً من ثم قيمة الذهب ، وهو في كل وقت مادة اندر من الفضة ويحتكرها الصاغة. ومع هذا فلا نلاحظ قيمة تصاعدية مستمرة : واذ كان الذهب يساوي في البدء تسعة اضعاف وزنه من الفضة ، فقـد هبطت قيمته ايام حمورابي الى ستة اضعاف لترتفع من جديد الى اثني عشر ضعفاً في القرن

السادس . ولكن ايام الامبراطورية الفارسية غدا المعدل المتعارف عليه عشرة اضعاف فقط . ويخضع هذا التقلب دون شك الى كميات الذهب المتوفرة التي هي عرضة بدورها للتبدل الحاصل في ملكية المناجم . وتكثر هذه المناجم او تقل تبعاً لاتساع ممتلكات الدولة جغرافياً .

ويكوّن عدم وجود النقود، او اقله عدم توفر عيار موحد ذي قيمة ثابتة، النقص الوحيد في حياة بلاد ما بين النهرين الاقتصادية . ولكن ان اعتبرنا بمجمل هذه الحياة فان الوقوف على حيويتها وليونتها وتشعبها ، هذه الصفات التي تثبتها لوحات القيود والمحاسبة المكتشفة ، يحملنا على الشعور بانها حياة اقتصادية شبيهة جداً بحياتنا العصرية .

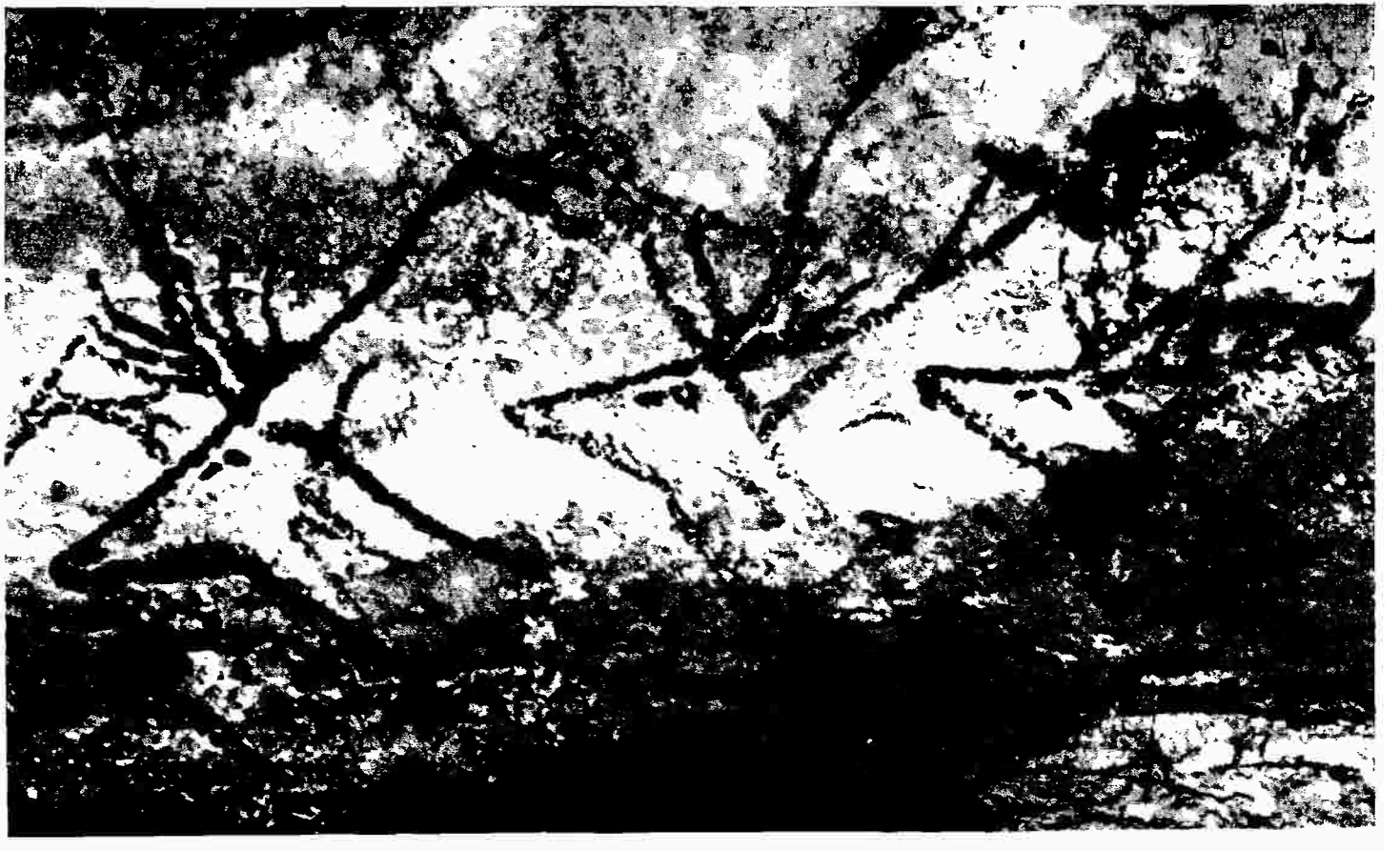

١ – افريز الأيائل السوداء في مغارة لاسكو

٢ — سيدة دامار الند البيضاء

٣ — هرم سكره ذو الدرجات

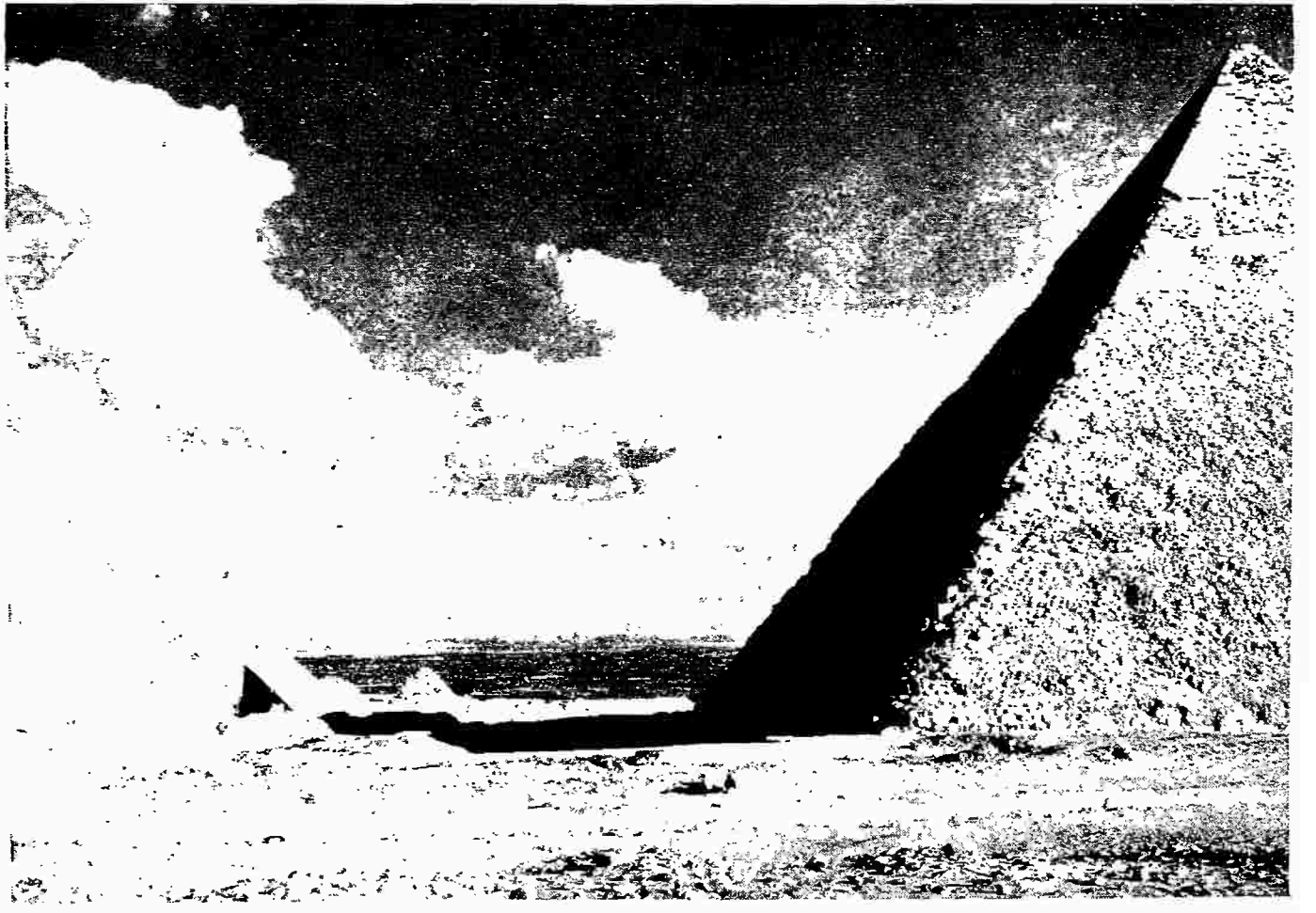

٤ – أهرام الجيزة

٥ – أبو الهول في الجيزة

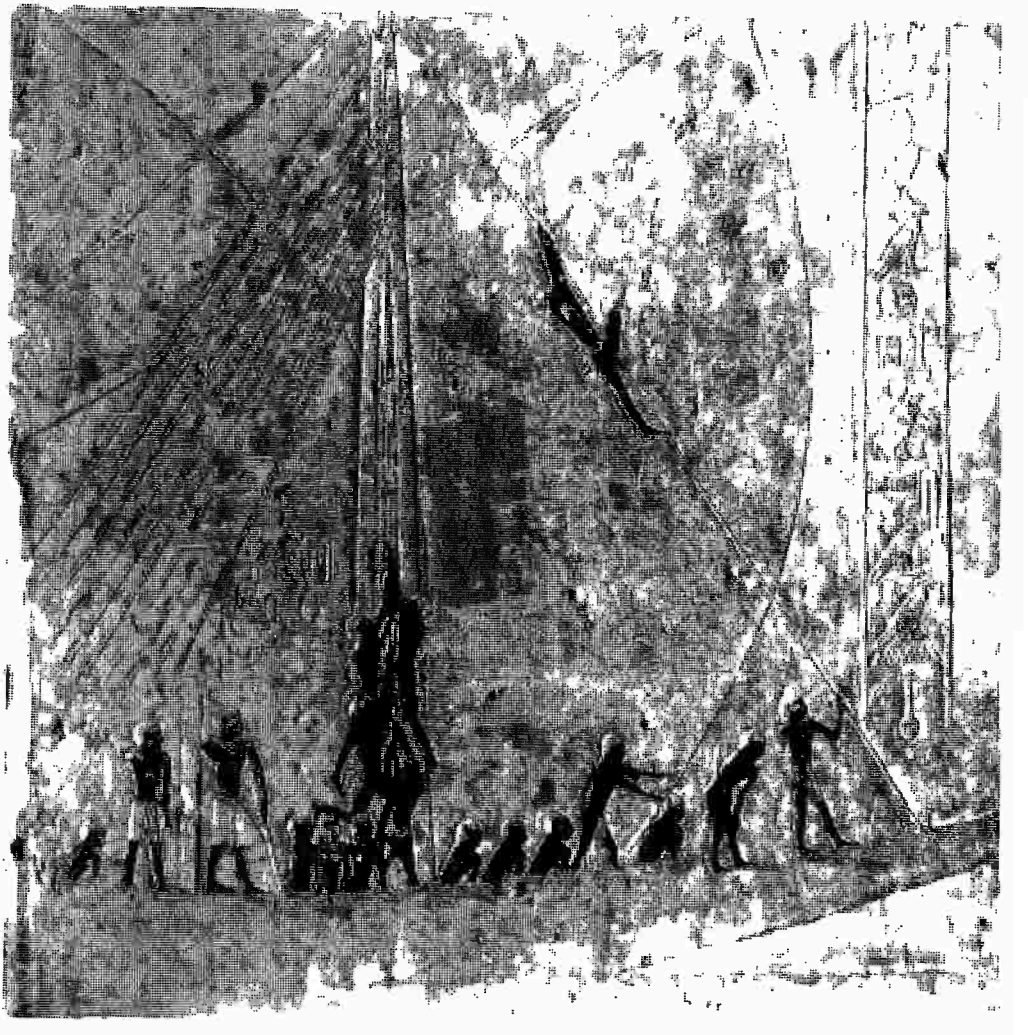

٦ — نقش ناتىء في مصطبة أخوتحوتب

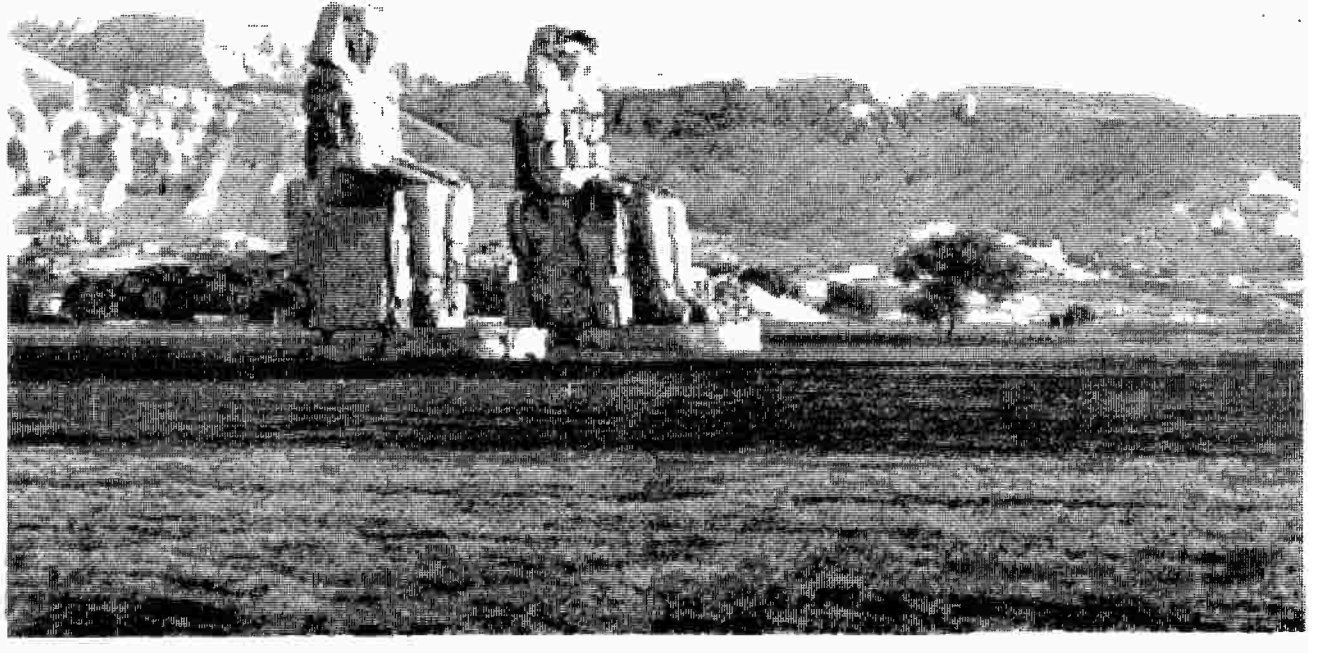

٧ – جبارا ممنون

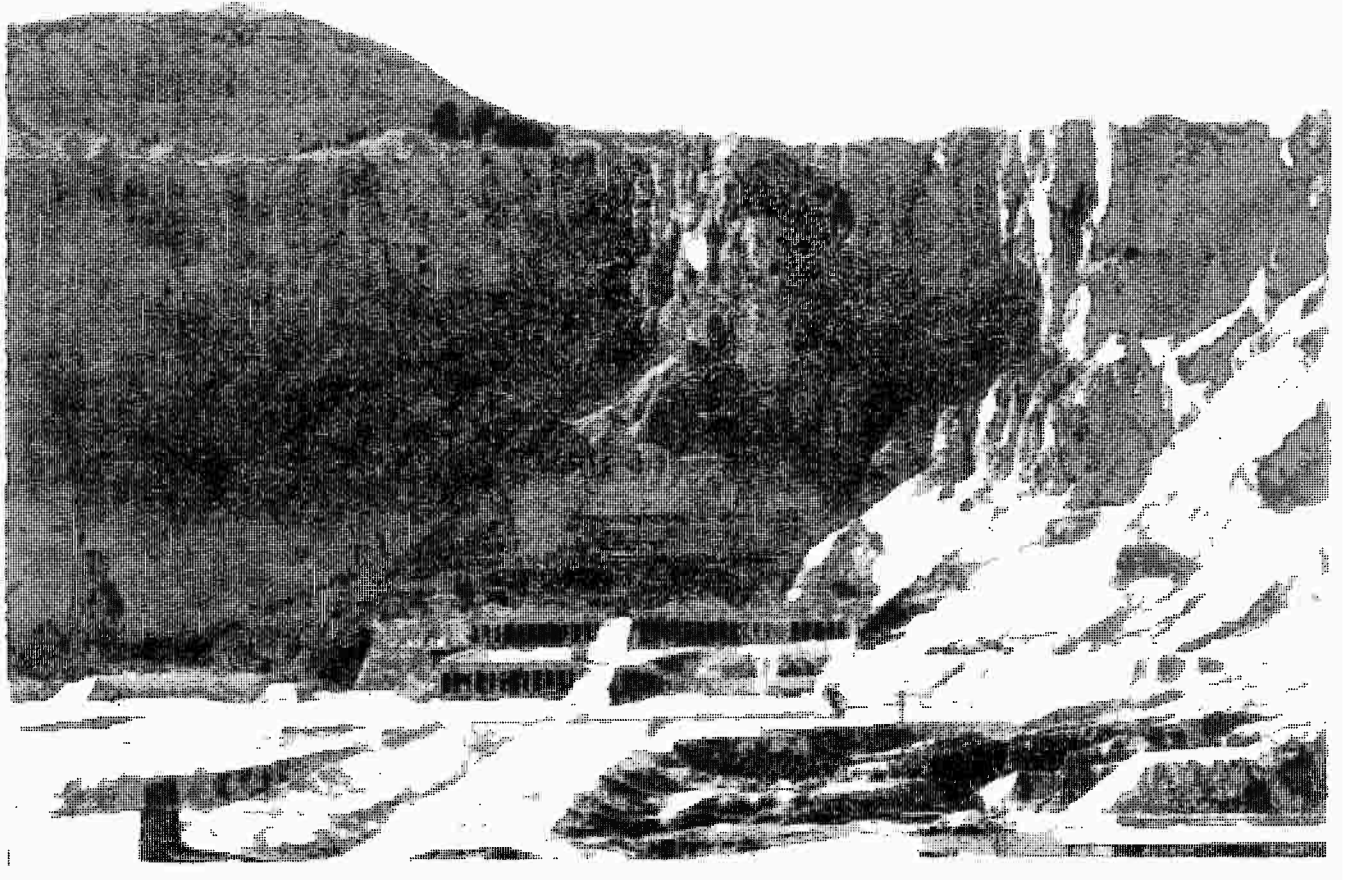

٨ — معبد حتشبسوت في دير البحري

٩ – معبد امنوفيس الثالث في الاقصر

١٠ ـ غداء الأميرة

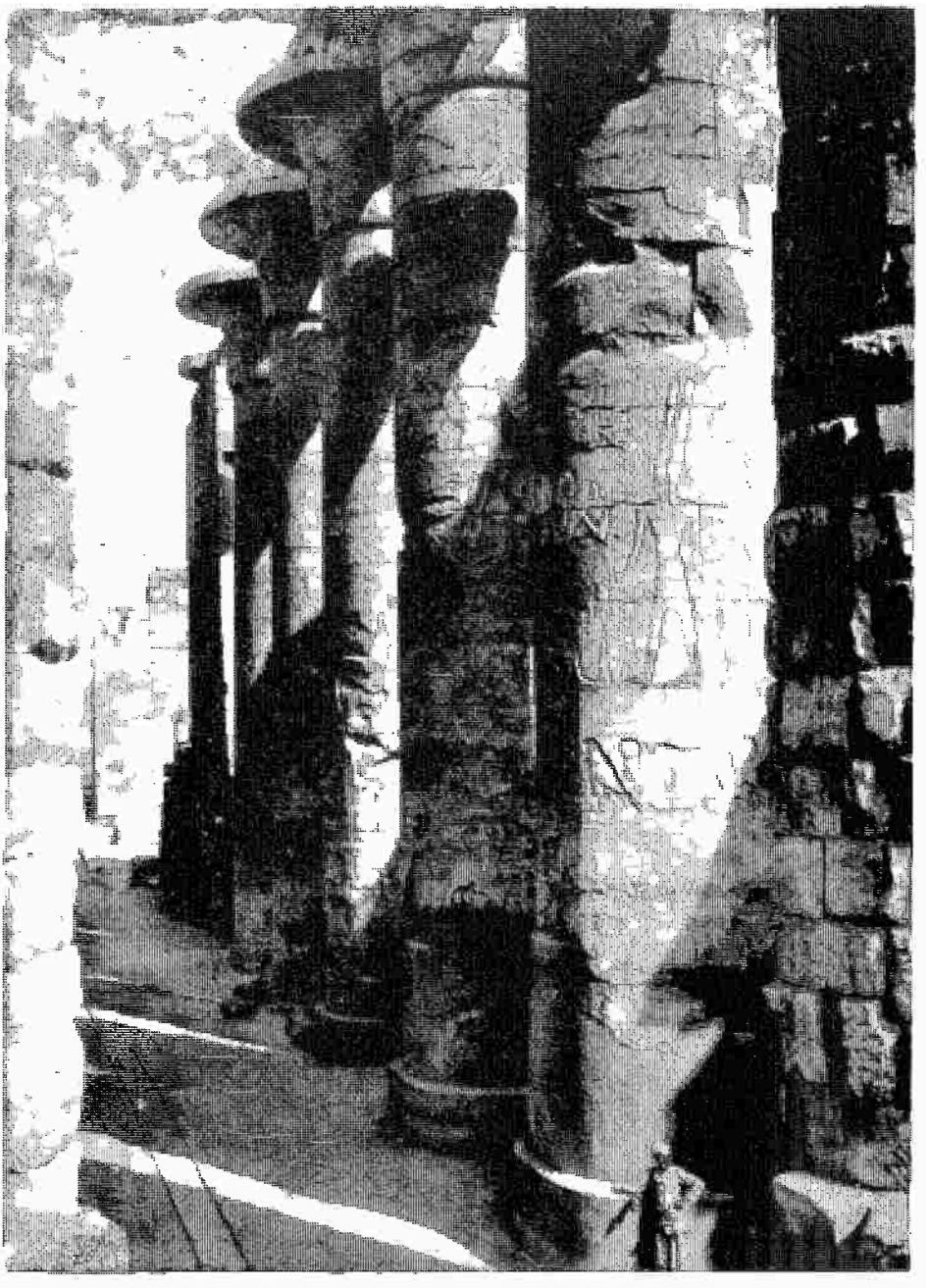

١١ – قاعة الأعمدة في الكرنك

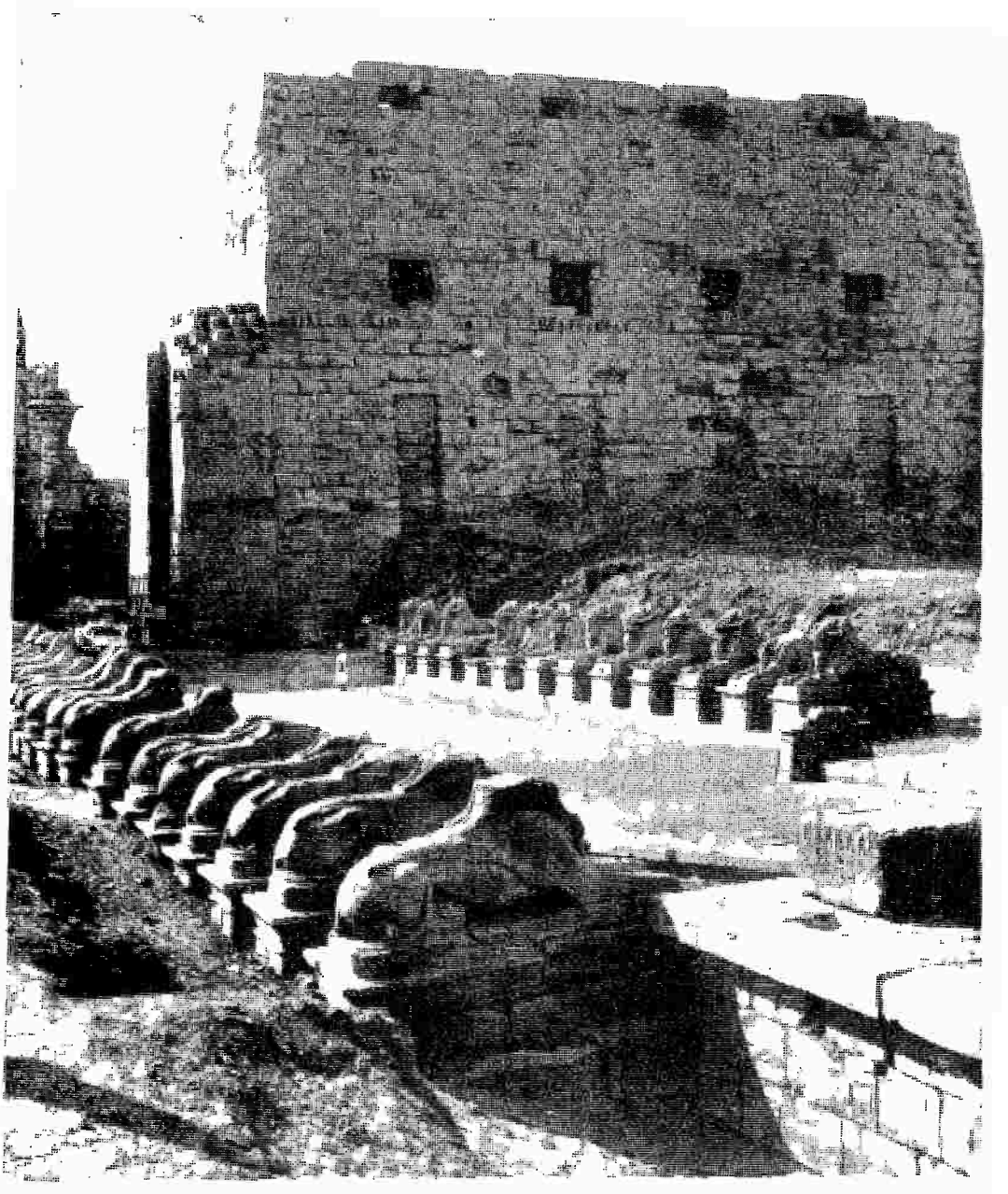

١٢ – معبد امون في الكرنك

١٣ – سيتي الأول والالهة حاتور

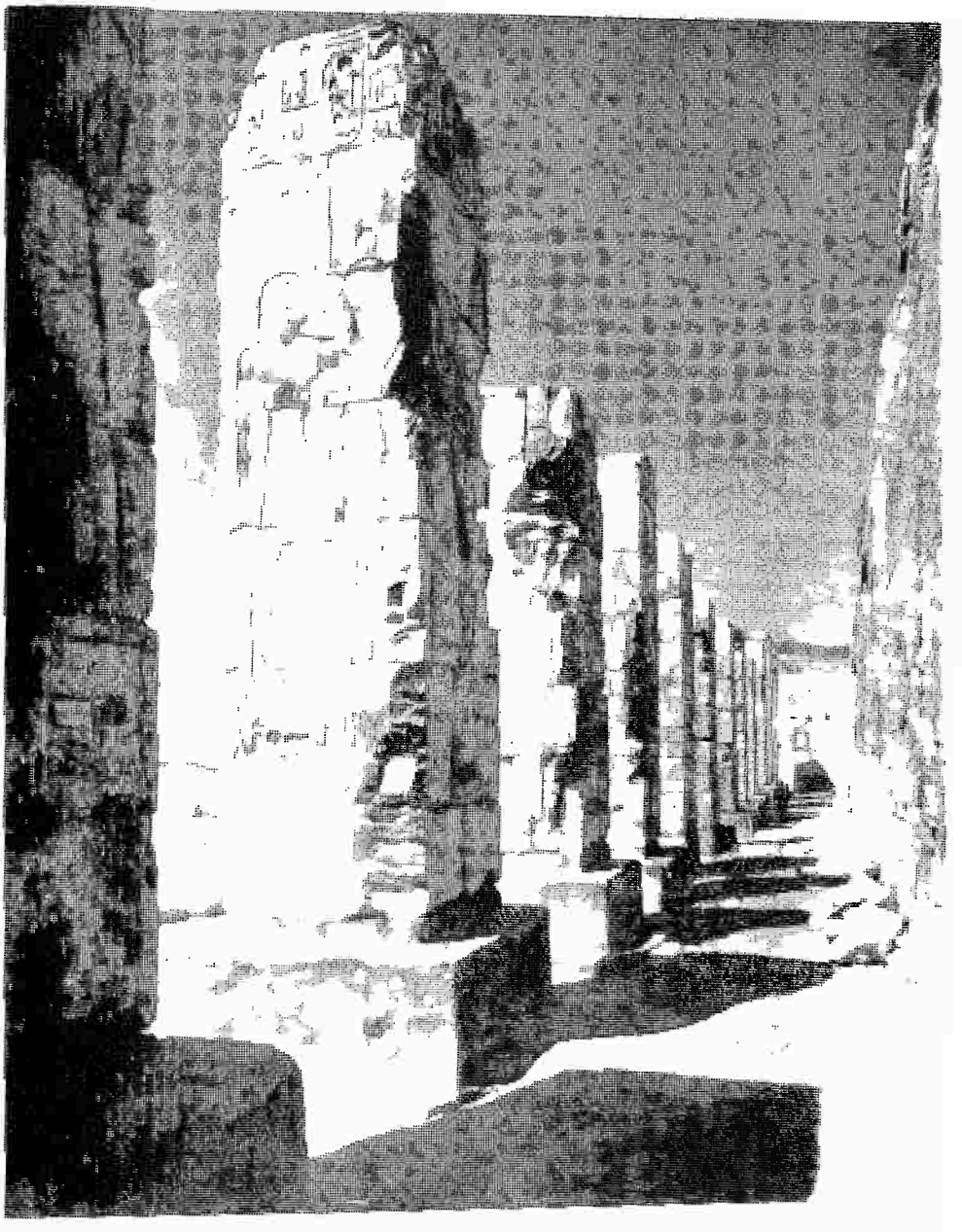

١٤ — معبد سيتي الأول في أبيدوس

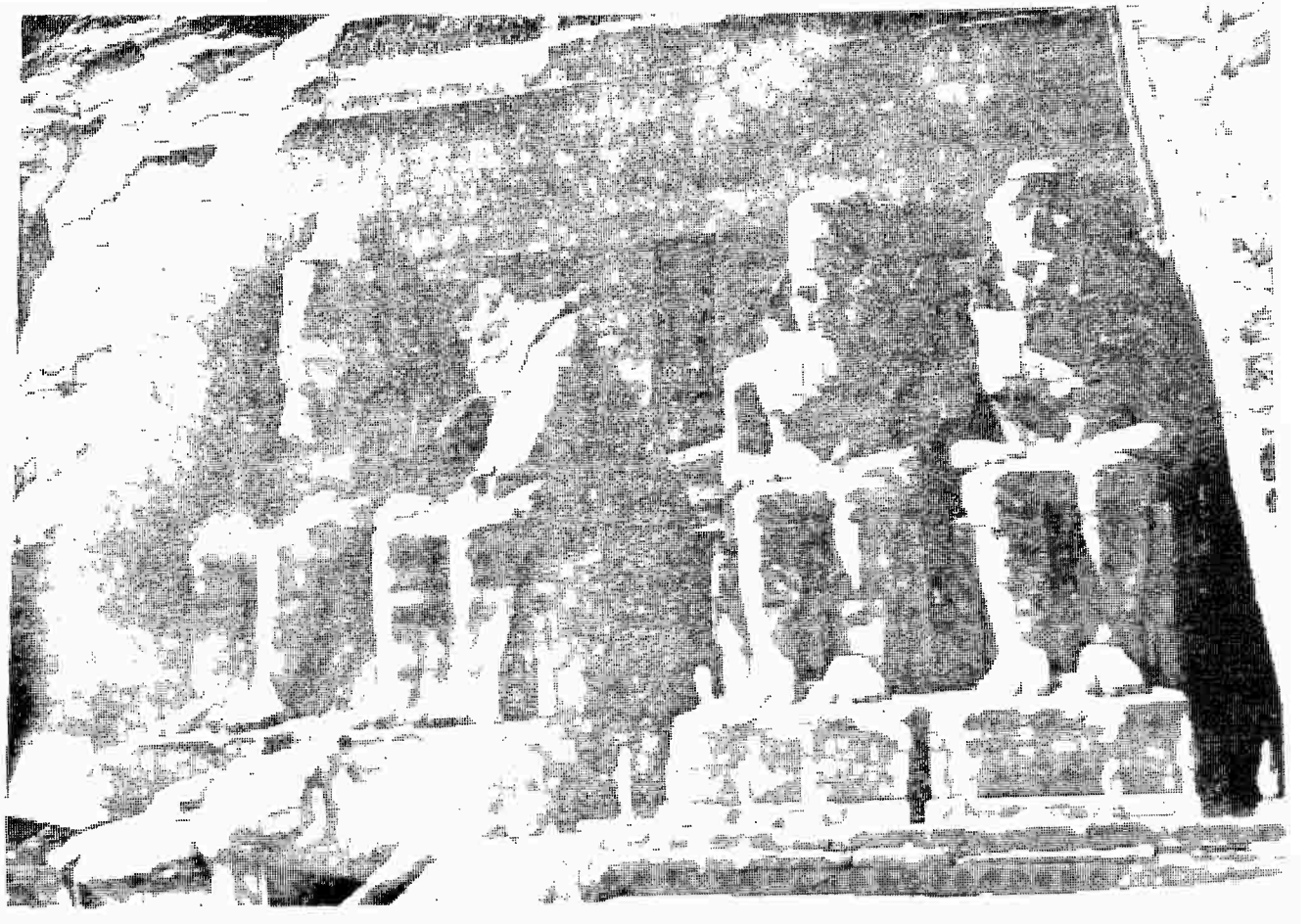

١٥ - التماثيل الجبارة في معبد أبي سنبل ، الساعة التاسعة عشرة

١٦ – المعبد المدفني لرعمسيس الثاني في طيبة . السلالة التاسعة عشرة

الفصل الثالث

الحيـــاة الروحيـــة

ان الطرائف المالية والتجارية التي وقفنا عليها لا تكوّن الحصة الوحيدة التي اسهمت بهـــا حضارة بلاد ما بين النهرين في مجموعة اختبارات العالم القديم . ولا تقل حيويتها وضوحاً واهمية في مضمار الحياة الدينية والعقلية والفنية . وان اعتبرنا بعض المعالم ، خاصة علم التنجيم ، ان لم نعر اهتماماً إلا هذه الناحية الاكثر اشراقاً ، نر بان هذه الحضارة لم تعرف لها منافساً ، وقـــد تركت اثراً لا يمحى في مناطق تبعد كثيراً عن احواض دجلة والفرات .

اولاً ـ الافكار والوقائع الدينية

الديانة : السومريون والساميون

يعسر على البحث الوقوف على اصول ديانة بلاد ما بين النهرين . وعندمـــا يصبح بالامكان التقصي عن هذه الديانة ، فستظهر لنـــا إذ ذاك متينة التكوين من حيث المظاهر الاساسية والاهداف الرئيسية ، ان لم نقل في الكثير من نواحيها التفصيلية . فهي موجودة منذ العهد السومري ، قبل اوائل الالف الثالث . ولا يعني هذا جزماً بانها من صنع السومريين الذين يكونون قد اكتفوا بتبني او تعديل عقائد او عبارات سبقتهم في الزمن. ولكن بقي التقليد امينـاً لما اورثوه . واستمرت معرفة لغتهم محصورة زمناً طويلاً بين الاوساط الكهنوتية ، لا بل يشعر المرء ايضاً بان التغييرات العرقية التي فرضتها الغزوات في وقت لاحق لم تبدل كثيراً في ديانة ثبتت اسسها منذ عهدهم . لا بل فان العكس صحيح اذ ان الشعوب التي تلتهم اعتنقت هذه الديانة التي فرضت نفسها فرضاً عليهم لمـا لها من ابهة وفضائل .

ولا اوضح في هذا المجال من المقارنة مع الديانات السامية . فهناك نقاط ثلاث لا شك فيها . فلشعوب بلاد ما بين النهرين اله للزرع ، دوموزي ، وهو الاله تموز بالدات ، اي ادونيس عنـد الفينيقيين والسوريين . ولهم اله للزوبعـــة والعاصفة ، يتخذ عنـد الامم المذكورة اسم حَدَد . ولكن عبادة هذه الآلهـة في بلاد ما بين النهرين هي اسبق في الزمن من اقدم تغلغل

ساميّ ، حتى ان نظرية الاقتباسات التي اعتمدها الساميون ، المدعوون « غربيين » ، لهـــا من الاحتمال ما للنظرية المعاكسة .

وعلى كل تبقى دوماً مثل هذه الآلهة في ديانة بلاد ما بين النهرين على هامش المذاهب الالهية الاكثر احكاماً وتبلوراً . وقد قبـــل كل الساميين المدعوين « شرقيين » ، اعني ساميّي بلاد اكّاد واشور ، الخضوع لهذه المذاهب مع ما هم عليه من تفوق حربي وسياسي . ففي بابل الاكادية يتبع حمورابي الديانة نفسها التي خضع لها غوديا في لاغاش السومرية ، فيكرم الآلهة نفسهـــا ويقيم لها ذات الطقوس وفي الهيا كل عينها ، لا بل يظهر نابونيد ، عشية الفتح الفارسي ، اي بعد اكثر من خمسة عشر قرناً على انقراض مملكة اور ، تعبده للاله سن ، الاله القمر في اور القديمة ، احدى مدن بلاد الكلدان .

تكريم الموتى: عدم النظام في قبور اور

ومع هذا يلوح هنا او هناك تطور ما : إذ لا يستمر قط امر انساني على حاله . وتبدو هذه الحقيقة اكثر دقة عند البحث بالافكار المتعلقة بالموت ، فتتكشف اذ ذاك عن وضوح ووحدوية تحيّر المؤرخين .

ولم يمض بعد ثلاثون عاماً على اكتشاف قبور اور التي يرجع تاريخها الى نحو ثلاثـــة آلاف سنة . ولكن اظهر هذا الاكتشاف المدى القوي الذي كان يتمتع به الاعتقاد بوجود حياة ثانية . فقد وجدت كل الجثث في هذه القبور والى جانبها ادوات تستعمل في هذه الحياة الدنيـــا ، من الادوات الحزفية السيئة الصنع والشكل المختصة بالفقراء المدفونين في جوف الارض دون تابوت الى الآلات الثمينة التي يستعملها عظماء هذا الكون ، وقد شيدوا لهم اقبية من آجر . ولا يُفسر وجود بعض من هذه الاواني الا اذا كانت ملأى بالمواد الغذائية . ونرى العجلات والاسلحـــة التي يتخذونها للابهة والعظمة كالخناجر والخوذ من الذهب الخالص ، وزنانير الفضة وآنية الطعام الذهبية ، ومعدات التزيين والتبرج ، والحلى ، حتى والآلات الموسيقية . وعلاوة على ذلك فان جثث الحيوانات والحراس والخدم والجواري تؤلف بعد الموت ، كما فعلت اثناء الحياة الارضية ، الموكب الذي يعتبر ضرورة لاظهار عظمة السيد الميت ، الذي سيحيـا حياة لا نهاية لها في عالم آخر نجهل عنه كل شيء .

ولم يعثر قط على قبور كقبور اور تخبرنا الحقيقة — على قلة النقوش التي وجدت فيها — مهما توغلنا في القدم او بحثنا في المناطق التي ازدهرت فيها حضارة بلاد ما بين النهرين . ولم يشيـــد لهذه القبور مثيل . ولا شيء يفهمنا حقيقة مثل هذا التصرف مهما قلبنا في الآداب السومرية او البابليـــة او الاشورية . ولقد اكتشف امر وحيـد مقارب ينبه الفكر : الطقوس التي يذكرها هيرودوتس والتي كانت تقـــام في زمن الملوك الغزّ (او السيت *Scythes*) . ولكن نسبة للبعـد لا يسع المرء الا ان يشك في قدرته عـــلى استثمارها ليستنتج وجود تأثير عرقي او غيره .

الافكار المتداولة بخصوص الموت

فقد الاحياء ، مع الزمن ، بعضاً من الاهتمام الذي كانوا يبدونه نحو الموتى ، فلا يمثل القبر انموذجاً من فنون بلاد ما بين النهرين ، على عكس ما نراه في معظم الحضارات القديمة ؛ لذا نجد انفسنا مقيدين بالنصوص التي ، على ما فيها من تكتم، تساعدنا على معرفة العقائد التي تفرضها اكتشافات أور الباهرة .

ولا يعني هذا بان الموت يعادل العدم الكلي . ولكن لا يصبح الميت إلهاً كما الحالة في مصر . وقد نعد على اصابع اليد الاشخاص الذين اعتبرتهم الميثولوجيـة آلهة . وفي الوقت الذي تتقلص فيه الحياة يغادر الجسدَ ظل او روح . وان لم يُعدّ لهـذا الروح رمس ، وبصورة ثانوية مواد غذائية ، فهو ينكد عيش الاحياء اذ هو بطبيعته شرير ويهيم دون راحـة . لذا فان مصالح الاحياء تتفق مع منفعة الميت ، وهذا ما يفسر لنا الرغبة الملحة في ان يكون للميت ولد ، حتى ولو كان بالتبني : وهذا الابن يؤمن طقوس الدفن المناسبة ويصبح فيما بعد « مريق الماء » ومنظم وجبات طعام الميت ؛ لانه ان اقيمت الفروض الاخيرة المتوجبة نحو الجثة ، يهبط اذ ذاك هذا الروح نحو « الارض الكبيرة » « الارض التحتانية » « الارض التي لا عود منها ! »

ويقدم لنا قصيد « نزول إشتار الى الجحيم » وصفاً غير شيق عن هذه المملكة الجهنمية، وعن شروط المكوث اللانهائي الذي سيقضيه فيها حتى اكابر العظماء انفسهم . ويطابق هذا الوصف الوصف الذي تسوقه لنا ملحمة غيلغميش، ولا يحتفظ الاموات باي ثوب بعد ان ينزعوا عنهم كل ملابسهم عندما يعبرون الابواب السبعة التي تبيح لهم اجتياز الاسوار السبعة المتتابعـة . ولا يستطيع هؤلاء الاموات الذين تكتنفهم ظلمات حالكة ويحرسهم الشياطين ان يعودوا الى الارض ، وذلك لراحة الاحياء الكبرى . ويهجع الجنود الذين يسقطون في ساحات الوغى وقد رفع ذووهم رأسهم قليلا وارتاحت نساؤهم على وسادتهم . وينعم بعض من هؤلاء الاموات ، دون ان نستطيع تعيينهم لنقص في النصوص ، بسرير ويشربون « ماء قراحاً » . ويقتات العـدد الاكبر من الاموات ، حتى وان اعتنى بهم الاحياء ، من الغبار او من التراب المذوب .

ويقلق غيلغميش على مصير هؤلاء الاموات المساكين . وقد يناشدهم قائلا : « ايها الميت لن تجد الحياة التي تبحث عنها . وعندما خلق الآلهة الانسان خصصوا له الموت ، اما الحياة فقـد احتفظوا بها بين يدهم » . ومع هذا فهو يكتشف نبتة الصبى الذي يصبح اسمها « الشيخ الذي يعود شاباً » والتي تكون مادة لمنهاج . ولكن تنتزعها منه اخيراً افعى مثبتة بصورة قاطعـة مصير الانسان الذي يدعو للشفقة .

والبون شاسع بين هذه الاساطير المحزنة والحكايات التي دغدغت عقول المصريـين . واذ لا ينكشف اي افق مشجع على العالم الثاني يزول من ثم كل استغراب ان بدا تطويل امد الحيـاة الدنيا صفوة الاماني ، اذ لا تحقق اي حياة اخرى سروراً للكائن الزائل . وهذا التمديد في اوروك ولارسا كما عند الاشوريين والبابليين، هو المكافأة الكبرى لحياة صلاح ، اعني لحيـاة

خضعت لمشيئة الآلهة ، وملأها صاحبها بافعال البر، حتى ان اشوربانيبال العظيم لا يستنكف عن ترديد هذا الدعاء : « اني ارهب الوهيتك ، فامنحني حياة مليئة بالايام الطوال ، فرحة القلب ، ولاني اعبدك في هيكلك دع قدمي تشيخان ! »

خوف وتقوى

اتى هذا النص على ذكر خوف الآلهة . وباستطاعتنا ان نورد نصوصاً تفوق الحصر تتبلور من خلالها نفس العاطفة. ولا يفكر المؤمن بالتذمر او الشكوى، بل قد يستميح لنفسه مراراً اظهار استغرابه للبلاوى التي تنزل به والتي لا يبررها مع هذا اي خطإ ارتكبه ، فتتصارع في نفسه عاطفتا الخوف والشكران لكل مـــا كان يمكن ان يصيبه وقد نجا منه . وهكذا يغدو الخوف ، ولو بصورة مصغرة، مرادفاً للتقوى ، وفقدان هذا الفزع للخطيئة ، والذي يخشى يعتبر نفسه على حق ان التمس ، دون الحاح ، ثواباً لان الخوف يحرضه على اتيان اعمال تسر الآلهة ، بينما يعد نفسه مستوجباً العذاب الذي لا يعرف للخوف معنى .

انه يوجد ولا ريب شياطين شريرون ، وهم مصدر الامراض والبلايا ، وتقوم مهمة السحر في تدارك وابعاد اذاهم . ولكن يصبح اعظم الآلهة ، مع حديهم الاصيل نحو الانسان ، عرضـــة لانفعالات غضب يستحيل التكهن بوقت حصولها ومعرفة اسبابهـــا . واذ يعسر على المؤمن التخفيف من حدتها ، يتوجب عليه من ثم تقبل نتائجها دون استنكار او تذمر . وكما نجد آثاماً محددة المعالم ومصنفة درجات درجات ، هناك خطايا يرتكبها الانسان عفواً دون ان يفقه بانها تشكل ضده اسباباً للشكوى . وان وجدت آلهة من مزاياها الاساسية العدالة وحماية الانسان ، نرى آلهة اخرى لا تتأثر قواها قط بالمبادىء المعنوية. وكما يوجد آلهة يعرف الجميع حقيقة كنهها، فهناك آلهة سرية يجهل المرء عن حقيقتها كل شيء ، فيسهل من ثم اغضابها وعن غير قصـــد . وهكذا يغدو الاعتراف بآثامه الوسيلة الوحيدة لاستجداء الرحمة : « ان آثامي كثيرة وخطاياي ثقيلة ، فلتخمد عاصفة الغضب في قلب سيدي ! فليهدإ الاله الذي اعرفه والاله الذي اجهله ! وليطمئن خاطر الإلهة التي اعرفها والتي اجهلها ! »

الآلهة الكبرى

ان اصل هذه الطاعة العمياء ، في مستهل نشأة ديانـــة بلاد الرافدين الذي يصعب علينا تحديده هو تأليه القوى الطبيعية العظمى التي تتسلط اهواؤهـــا على الانسان الاعزل . وفعلاً فسيمثل دوماً في زون (بانتيون) كثير التغيير آلهة الرعد والزوبعة والنار والانهار والجبال . كما تتمثل فيه آلهة الزراعة ، التي على غرار الزراعة نفسها ، تنتقل الى الموت لتعرف من بعد قيامة مجيدة . وتقام لهذه الفئة من الآلهة او لتلك طقوس تقدم لنا اصدق تفسير عن تأمين خصب الارض ومن ثم تكثير الغلال .

ومع هذا فان تطوراً طويل الامد ، متوغلاً جداً في القدم ، وذا طابع عملي يصعب علينا من ثم احياء مراحله ، قد اسند المركز الاولي الى آلهة لا تبيح لنـــا التجارب اليومية والسريعة معرفة حقيقة قوتها . وتسيطر بعض هذه الآلهة على مختلف العوالم من سماء وارض ومـــاء وعالم

سفلي ، كما تتحد بعض منها اتحاداً ذاتياً مع النجوم الكبرى . وهذه الآلهة الاخيرة بالاضافة الى آلهة السماء كالاله أنو والإلهة أنتوم والتي يستحيل علينا التفريق بينها ، هي دون شك الآلهة الاكثر عظمة : سن الاله ـ القمر ، شمش الاله ـ الشمس ، إشتار كوكب الزهرة . لذا فان العلامة التي تسبق اسم العلم وتشير بانهـا ستدل على إله هي مشتقة من شكل النجمة وتعني في الاساس « السماء ».

الصلة الشخصية بين الاله والفرد

يوزع سكان بلاد الرافدين تعبدهم على آلهة لا عد لهـا . ويقر كل شخص ، مهما كانت منزلته ، بان له الهاً ومراراً إلهة ايضاً ينتظر منهما رعاية خصوصية . وتظهر غالباً هذه العلاقة الفردية في اسم المؤمن حيث نجد الكلمة العادية « يا إلهي » « ربه »، او اسم هذا الاله او ذاك مشفوعاً بتأكيد نظير هذا... هو حصني » « ... خلقه »، او بدعاء شبيه بهذا « كن رحيماً » « اعطف علي » الخ ... ويلاحظ غالباً على الخاتم الخاص بكل شخص اسم او رسم هذا الاله ، الملاك الحارس ، او حادثة تمت الى طقوس عبادته او اسطورته . ولا ينسى المرء ان يستجدي حماية الاله بدعائه : « ليقف الهي عن يميني ! ولتنتصب إلهتي عن يساري ! وليستقر ملاكي الحارس على جانبي ! »

ولكن نظم الفرد ، منذ اقدم العهود ، مجموعة هذه الآلهة التي ينتخب منها من يشاء ، وذلك تبعاً لعاداته ومفاهيمه واحتياجاته كمخلوق اجتماعي .

الآلهة والمزايا الانسانية *Anthropomorphisme*

في جميع الآثار ، المنقوشة منها والادبية ، يبدو لنا المذهب القائل إن للآلهة اشكالاً ومزايا الانسان، كأنه قاعدة مطلقة. ولا نجد قط اي اثر لمبدإ التعاويذ(*Fétichisme*). وقد نلاقي بعض دلائل لما يعرف بمذهب التوتميسم *Totémisme* (قالت به بعض القبائل المتوحشة ، خاصة في اميركة الشمالية ، ويؤكد بان جـد الانسان هو حيوان معروف لديهم يقومون من ثم بتكريمه) ولكنها شديدة التشويه ويختلف العلماء في تفسيرها. وانعدمت في بلاد ما بين النهرين عبادة الحيوانات التي اكتسبت في وادي النيل اشكالاً واشكالا : فلا حيوانات مؤلهة ، ولا كائنات نصفها على شكل انسان والنصف الآخر على هيئة حيوان : وليس الثور الجنح الذي يحمل وجهاً بشرياً الا روحاً للحماية يتمتع بسلطة محدودة . وقد يرافق حيوان مقدس آلهة ما : فنرى إشتار ومعهـا اسد تجره او تعلوه او تشده الى عجلتها ، ويشبهونها به . ولكن ليس للحيوان ، ان رافق الاله او حل محله، الا قيمة رمزية او مجازية شبيهة بقيمة قرون الثور ، رمز العظمة ، المرسومة حول التاج الذي يكلل التماثيل الالهية . وهذا دليل على انه ان كانت الديانة قد عرفت مراحل سابقة في الزمن ، فهي تطورت وتجاوزت هذه المراحل منذ العهد السومري .

ان جميع الآثار المنقوشة اضفت على الآلهة الحقيقية لا بـل على الارواح الصالحة او

الشريرة مظهراً انسانياً بحتاً ، واعتبرتهم من تم الميثولوجية متساوين في كل شيء للطبيعة الانسانية ، ما عدا الموت ، فاسندت اليهم العواطف والاهواء ، وتحدثت عن اسفارهم ومغامراتهم ، ونظمتهم فئات فئات ، فلكل اله زوجة او « السيدة » استولدها البنين والبنات : ومن البديهي ايضاً ان نجد في الميثولوجية بعض الاختلافات ، فان وشائج القربى تتغير ، طبقاً للمكان وخاصة حسب الزمان ، تبعاً لتقلبات واهواء يستحيل عالباً تفسيرها. وتعرف إشتار بانها ابنة سن من آنو ، ولكن في مكان ما او في فترة لاحقة يقدمونها لسانكانها ابنة آنو التي تصبح زوجة له. وتفسر لنا هذه الملاحظة الى اقصى حد التغييرات الجمة التي تطرأ على علم انساب كثير التدرج . ويتشاجر الآلهة ويتحاربون، وهم يتبادلون الرأي في اجتماعاتهم ، وقد يندم بعضهم ، ولكن لات ساعة مندم ، بعد ان يكونوا قد خضعوا لضغط الآخرين ، فلا يبقى لهم من ثم إلا ان يبكوا بكاء مريراً .

الآلهة والدول

يستطيع الانسان ان يفسر ما يتحدى التفسير لاول وهلة . فان التغييرات التي تطرأ على الدولة تعكس الظروف التي تمر بها القوة النسبية للآلهة التي تحمي هذه الدولة وتعطف دوماً عليها دون ان يغدو لقوتها مع هذا مفعول ايجابي .

ولكل مدينة اله او إلهة ، وهي تعتبر نفسها ملكاً لها او له ، كما تتحد معه او معها شبه اتحاد ذاتي ؛ وتحتفظ المدينة له — او لها — بافخر هداياها، عربون عبادتها ، وتثق به — او بها — لتعيين ملكها الذي بدوره يعرض قراراته ومشاريعه كانها فرضت عليه فرضاً من قبل الآلهة ، او اقله اوحت له بها . وهكذا فان آنو هو ، بالدرجة الاولى ، اله اوروك ، وأنليل رب نيبور، ونرغال معبود كوتا؛ وسن سيد أور، وشمش رب مدينتي لاغاش السومرية وسيبار الاكادية.

ويظهر هذا المثل الاخير كيف ان مدينتين قد تكرمان مراراً الإلهة الواحدة . ولكن حتى في هذه الحالة لا يأخذون على انفسهم إلا نادراً ان يضيفوا الى اسم هذه الإلهة صفة خاصة ، كعندما يوضحون مثلاً « إشتار مدينة اربيل » لتمييزها عن إلهة اخرى اشورية تدعى بهذا الاسم كاشتار نينوى او إشتار اشور . ولا يعني غالباً هذا التشابه في الاسماء خداعاً بل يكشف عن صلة استعمار ، او بوجه افضل ، عن تفاعل ديني، هذا ان لم نقل عن فتح حربي حقيقي. وان عرف سن منذ اقدم الازمنة بانه اله أور في بلاد الكلدان فقد اشتهر بعدئذ بانه اله حران ، في الشمال الغربي من بلاد ما بين النهرين ، عند منعطف الفرات : فكيف يتناسى المرء بان والد ابراهيم كان قد هاجر ، كما تذكر التوراة ، من اور الى حران ؟ ومع هذا فان مثل هذا النزوح او ايجاد مراكز جديدة لا يتمان دوماً دون تحويل او تحوير في الجوهر او التعبير ؛ فاشتار التي عُرفت في بلاد بابل بانها إلهة الحب اساساً ، غدت في بلاد أشور ربة الحرب . ولكن وان مالت تارة لهذه الجهة وطوراً لتلك الناحية فقد عنت دوماً وبصورة التلازم هذين العنصرين .

ولذا يسهل التفسير كيف ان بعض الآلهة ارتفعت الى مصاف إلهة شعب او بالاحرى مملكة ، دون ان تبقى بصورة حصرية إلهة مدينة ما . وقد لازم هذا الارتقاء في المنزلة تطور المدينة التي اصبحت مركزاً سياسياً اكثر اهمية او عاصمة دولة . وهكذا فان اشور ، رب مدينة اشور ، اصبح الإله الرئيسي لجميع الاشوريين ، حتى وان كانوا خارج المدينة التي تحمل اسمه ، ثم غدا اله الدولة الاشورية الاول ، بعد ان انتصر على آلهة الشعوب الغريبة المغلوبة على امرها . ولكن كيف نعرف في هذا المجال ان كانت حقيقة العقائد العفوية تعادل فعلاً العبادة الرسمية التي يبديها العاهل ؟ والحقيقة الواحدة الثابتة هي ان افراد سلالة سرجون قد اظهروا عبادتهم للاله اشور ، واعتبروه حامي سلطانهم وملهم تعلق الشعوب بهم . ومن الجائز طرح مثل هذا السؤال وفي الالفاظ نفسها فيما يختص بالاله مردوك ، رب بابل، وقد اصبح معبود الامبراطورية ايام حمورابي، ثم بعد انقضاء الف سنة ، معبودها في عهد نبوكدنصر .

وترافق هذه التغييرات السياسية تقلبات قد تكون عاطفية ، وتفسر بعض التحويرات الميثولوجية وان هي لم تخضع مع هذا لمعطيات القياس . وهكذا يرتقي هذا الاله الثانوي ، بالاستناد الى حدث جديد ، الى مستوى رب آخر أعلى مقاماً ، بل يحل محله ان اقتضى الامر ويرتفع من ثم الى القمة . وهكذا فان إشتار ، وهي الزهرة الكوكب السيار ، وسيدة السماء ، و « ربة اللذة » و « سيدة الحب » و « إلهة الحرب والمعامع » قد حققت ارتقاء مستمراً حتى ان آنو في مدينة اوروك انتخبها زوجة له .. قبل ان تحل محله : وقد طغى نجاحها على كل بلاد ما بين النهرين حتى اصبح اسمها مرادفاً لاسم « إلهة » . ونجد نصوصاً ترتقي الى العهد الحمورابي تروي لنا كيف تنازل اكابر الآلهة لصالح مردوك، اله العاصمة بابل ، ومنحوه « ملكاً ابدياً » « الملك على العالم باسره ». فغدا بل *Bêl* « السيد ». وقد كان سابقاً هذا اللقب والمركز لانليل . وفي « نشيد الخليقة » اغتصب نحو خمسين اسماً من اسماء الآلهة كما اختلس لنفسه في الوقت ذاته صفة خالق الانسان ، وقد كانت قبلاً لابيه « إيا »اله اريدو. ولكن في وقت لاحق، واستناداً الى نص هذا النشيد الاشوري ، استأثر اشور لنفسه بهذه المنزلة . وهكذا تعكس تعديلات الاسطورة ، مداورة بواسطة الآلهة ، مصير الجماعات البشرية المتقلب .

الهيكل

ان عرفت هذه الجماعات افول مجدها لأن الآلهة التي تكرمها قد تخلت عنها او خضعت لآلهة اخرى، فلا يعني هذا الامر بانها تتهاون في جهودها للابقاء مع هذا على عطف الآلهة وذلك باستكشاف رغباتها ومن ثم تنفيذها ، إذ تعتبر هذه الجماعات بان عبادة الآلهة باصدق المعاني وادق المظاهر هي فرض لازب لا تستميح لنفسها التهرب منه .

ويحتاج الاله كالانسان لمنزل له ولاسرته اعني الهيكل . وللهياكل كلها دون استثناء اسم يبتدىء في اللغة السومرية بحرف(اي *E*)وباللغة الاكادية بحرف « بيت » اي« البيت ». ففي بابل يملك الاله مردوك الـ « اي – ساغ – يل *E -Sag - il* » اعني « المنزل ذو الرأس العالي» الذي

يرتفع بقربه حصن يدعى اي ـ تيمين ـ أن ـ كي *E - Temen - an - ki* اي« بيت اساس الارض والسماء » . ويشمخ عالياً في اشور « بيت اشور القطر » اي هيكل انليل ، كما يرى في « بيت العظمة » ، وهو سور كرّس لاشور ، « بيت جبل البلاد » . وعلاوة على ذلك ، وفي خارج المدينة ، يملك بعض الآلهة بيتاً ريفياً يجلبونهم اليه بمسيرة حافلة في موسم اعيادهم .

ويلزم لتشييد هذه الهياكل وترميمها او توسيعها جهد كبير ووفر من المال ساهم بهما الملوك بصورة فعليـة وليس فقط ادارياً وماليـاً : إذ لا يستنكر الملوك من ان يتمثلوا ، كما حصل في لاغاش ، وهم يحملون على رؤوسهم قفة تملؤها مواد البناء . ويتبع البيت الحاق عدة : كالمخازن والاصطبلات للحياة المادية ، والجنائن والحدائق للترويح عن النفس . وتضاف اليه ايضاً مدرسة الكتبة ، ومخطوطات ومكتبة بغية تأمين الثقافة اللازمة لرجال الكهنوت .

العبادة ورجال الكهنوت

ان هدف العبادة الرئيسي ، لارضاء الاله ، هو تغذيته وذلك بتقدمة المآكل والاشربة التي تقررها الكتب الطقسية ، في ساعات محددة واكثر من مرة في اليوم ، على طاولة مقدسة امام الصنم الالهي وسط الاراهير وادخنة البخور المنقي وسيول من الروائح العطرية . وسمحت كثرة ذبائح الحيوانات المنتخبة الاحتفاظ يوميـاً باحسن الاجزاء للاله ، واذ كان يحب التنوع في الطعام قدموا له لحوم حيوانات داجنـة وبرية ، وطيوراً ، وبيضاً ، واسماكاً ، وثوراً واثمـار عنب وتيناً ، وعسلاً ، وماء ، وجعة ، وخمراً وحليباً .

وكانت الاعياد كثيرة يحتفل بها بابهة عظمى تتخللها تطوافات تشترك فيهـا الجماهير التي تواكب التماثيل الالهية المحملة على العجلات .

وساد الحفلات ترتيب دقيق شمـل الحركات والاناشيد ونصوص الصلوات « أدّ كل يوم واجباتك لالهك : الذبائح والصلوات والبخور اللائق ... قدم له كل صباح الابتهال والصـلاة والسجود وهو يهبك الكنوز ، وتنجح كثيراً بواسطة الهك... إذ ان الذبيحة تزيد في الحيـاة والصلاة تطهر من الاثم » .

لذا افتقر كل هيكل الى العديد من رجال الكهنوت الذين قسموا فئات فئات . ففي القمة نجد الكاهن الاعظم الذي ينوب مناب الملك ، ثم جيشاً من مختلف الرتب : فهنـاك الرقاة والمتنجبون والمنشدون والسحرة والمنجمون الخ .. وهكذا فاننا نعرف اقله اربعين وظيفـة كهنوتية . ونجد ، حتى في خدمة الآلهة الذكور ، الكاهنة العظمى والكاهنات ؛ خصوصاً كما نجد في هيكل إشتار بمدينة اوروك ، العواهر اللواتي يعرضن ذواتهن لتتميم طقوس تكريم الربة !

ويبدو بان رجال البيعة هؤلاء كوّنوا ، في كل المناسبات ، الوسيط الضروري بـين المؤمن والآلهة . وقد لا نقف قط على فعل عبادة شخصية يقوم بها في منزله فرد علماني . ولم يُمنع هذا الفرد من تأدية الصلاة ، ولكن هل من ثقة في جديتها؟ وحتى هذه الصلاة أفما كان من الضروري

معرفة نصها معرفة تامة ؟ قد تضللنا الوثائق التي نعتمد عليها والتي لا تمت جميعها تقريباً إلا الى اصل كهنوتي . ولكننا نعرف ، ان اعتمدنا عليها ، بانه لم يكن يتم اي امر بدون خبير ، ولم يشترك جمهور المؤمنين في الحفلات الا خارج الهيا كل التي كانت توصد دوماً في وجههم . فكلمة « الداخل » — الى الهيكل — كانت تعني بالدرجة الاولى الكاهن الذي يساعد دوماً المؤمن الذي يسمح له بالدخول الى « بيت الآلهة » ، وذلك في مناسبات خاصة وللقيام بعمل محدد المعالم كالذبيحة او التقدمة او استشارة عراف في الآلهة .

السحر

تعددت الظروف التي حتمت على المؤمن مراجعة رجال الكهنوت لقاء أجر محدد . ووضعت الهيا كل سحرتها وعرافيها في خدمة الجمهور وخدمة الملك .

والسحر والدين الرسمي متلازمان لا يفترقان . وترقب الانسان في كل لحظة من لحظات حياته اشراك ونحوس ومحالطات دنسة ، وشياطين ينشرون الاذى — « السبعة » « مجموعات السبعة » — وينفذ اوامرهم سحرة وساحرات ، يترصدون في كل مكان ويوقعون بالف مصيبة ، حتى يغدو المرض شكلاً من اشكالها . واتقاء لشرهم يستنجد الآلهة والملوك بالارواح الحارسة ، هذه الثيران المجنحة ذوات الرأس البشري المهيب والحنون ، والتي تنتصب امام ابواب الهيا كل والقصور . ولكن لا يبطل حضورها مع هذا شر الشياطين ، بل نجد لهذه الغاية طقوساً كثيرة العدد والتنوع من النضح بماء التطهير الى تلاوة الصلوات الى اعمال الرقي الاكثر تعقيداً .

ومن الضروري اجراء المقتضى على الشخص بالذات ، وتطهيره من الخطايا التي يكون قد ارتكبها ، او من الهفوات التي قد اقدم عليها بصورة اللاوعي ضد الاخلاق الانسانية والقيم الدينية ، او من اعمال السحر التي يكون قد تعرض لها . ويجب اتمام الطقوس على كل ما يخصه او يحيط به حتى اصغر ممتلكاته المنقولة العادية كالكرسي والسرير او الطاولة . وتشمل هذه الاعمال ايضاً زوايا بيته ومنعطفات الطرق وثقوب الحفر . ولبلوغ هذا الهدف تتوالى الصلوات والمزامير والادعية . ولكنهم مع هذا قد يجرون الطقوس المشار اليها على الرسوم والنقوش التي تمثل الشخص المعني ، او حتى ايضاً على اشياء اخرى تلقى من بعد الى النيران او الكلاب . ويستعملون كذلك مواد نافعة شرط ان تعتبر مقدسة من حيث جوهرها او من الطقوس التي اجريت عليها : كالزيت النقي ، « المقدس ، المطهّر الآلهة » الذي يمسح فيه المرضى خاصة . وهكذا يأخذ السحر وكأنه من صميم الدين مجراه الى علم الطب .

العرافة

لا تقل العرافة شأناً واهمية ، وهي تهدف استكشاف نيات الآلهة ومن ثم الخضوع لها وتنفيذها اكثر مما تسعى لايضاح مصير مقدر لا مرد عليه . ويصبون ايضاً في هذا المجال الى التأكد من ان الظروف ستكون سعداً او شؤماً على المشروع الذي يفكرون به . وهكذا يسعى الانسان ، وهو يحيا في خوف دائم من التأثيرات المضرة التي تحيط

به ، لمعرفة الخطر حتى يتخذ حالة دفاع امنع فيجعل حياته اكثر مقاومة او يستجدي عونـاً اشد فعالية .

وللوصول الى هذه الغايات المختلفة تصبح جميع الوسائل صالحة شرط ان يقوم بتنفيذها خبراء يملكون مجموعات مخطوطات عملية دونت فيها قواعد واساليب تقليد يغيب في ظلمـة القدم . وان تتابع الاحداث الشديدة التنوع والتي لوحظت بكل دقـة وسجلت بفائق عناية ، سمح بتقرير قوانين التوافق السري بين مجالات تبدو غريبة بعضها عن بعض . ولكل شيء معنى ، لم يتضح بعد ولكن من الممكن كشف القناع عنه يوماً ما ، إذ لا ينفرد في العالم اي امر : بل يكفي ان يُحدد الاطار ، الفعلي او الرمزي ، الذي يدخل ضمنه الحدث مهما كان تافهاً .

لذا تعتمد العرافة اساليب عدة . وتغدو الاحلام ، واضحة كانت ام بحاجة الى تأويل ـ وقد ارسلتها الآلهة دون شك ـ بمثابـة انذار او نصح او أمر. ويراقبون حالات وحركات المعنيين والاشخاص الثالثيين والحيوانات ، فزجر الطير وتموج الماء واللهيب يعطيان افادات لهـا مغزى ونفع . وقد يستحصلون ايضاً على مادة التفسير بمزجهم الزيت والماء، ويفحصون خصوصاً فحصاً دقيقاً جداً امعاء وكبد الحيوان الذي انتخب للذبيحة . وعرفت هذه الطريقة الاخيرة – اعني فحص الكبد – رواجاً اكثر من سواها . وافاد كثيراً ايضاً درس هذا الجهـاز بهذه الطريقة لمعرفته معرفة واسعة من حيث علم التشريح . لذا اكثروا من صنع اكباد خزفية وحتى نحاسية استعملوها كآلات للمقابلة حتى يستطيعوا تفسير اي حالة غير طبيعية مهما كانت دقيقة .

علم التنجيم

ان اعتبـار بعض كبار الآلهة متحدة اتحاداً ذاتياً مع كواكب معينة ، وتفوق العالم الفلكي وآلهـة السماء الذي اقرته الشعوب منذ اقـدم العصور ، شجعا على مراقبة الاحداث الفلكية مراقبة دقيقة ، اذ هي تنبىء عن الاحداث الارضية المقبلة وتسيرها وتسيطر عليها : لذا وجب معرفة الصلة المتينة الكاملة التي تربط بين ما يجري في السماء وما سيحدث على الارض .

فالخسوف ينبىء تهديداً ما ، لذا غدا من المفيد معرفة زمن وقوعه ، حتى يبذل الجهـد لتدارك نتائجه او تخفيف وطأته جهد المستطاع. ولم تظهر مصادفة الغمامة التي تحول دون ملاحظة الهلال في اوائل الشهر ، ويخضع مصير الانسان لهيئة الابراج ومقتضى اوضاعها وقت مولده . وما الفيضانات والانتصارات والهزائم الحربية ، والامراض الحيوانية ، والاوبئـة السارية ، والامراض الشخصية إلا تعبير مادي عن حسن استعداد الآلهة او غضبهـا ، وعن المعارك التي تنشب فيما بينها او ضد القوى المعادية لها .

لذا فباستطاعة الذي يراقب الفلك بصورة مستديمة وعلمية ان يستكشف كل شيء . وان جمع هذا المراقب الى علمه كمفسر لا تفوته شاردة او واردة صفة اللاهوتي والساحر والكاهن غدا بامكانه ان يعين بكل تأكيد الطريق الواجب اتباعها لتجنب الالم او العوز المدقع ، ان لم يكن

ايضاً طريق الخلاص والازدهار . ولكن لا يدعي احد بانه يملك مثل هذا العلم الدقيق المتبصر . ومع هذا يُدوّن علماء التنجيم دون ملل او وهن في مخطوطات الهيا كل الملاحظات التي يقفون عليها اثناء ابحاثهم . لذا تقدم مباشرة مراقبة الطوالع والادلة السماوية مواد لا تحصى ، تحرّر منها ، بوعي او بغير وعي ، علم الفلك الاوليّ .

معطيات ديانة بلاد ما بين النهرين المستديمة

انقرضت ديانة بلاد الرافدين قبل الديانة المصرية . وحافظت هيا كل اوروك ، احدى اقدم المدن السومرية ، على دورها التقليدي اكثر من سواها . وكما يحصل غالباً عند نزاع الحضارات الهزلى ، يلاحظ المرء عند هذه الجماعات الكهنوتية الخاضعة لسلطان الملوك اليونان ، في القرنين الثالث والثاني قبل المسيح ، ارادة ملحة للعودة الى الماضي السحيق ، وجهداً كبيراً لاحياء اشكال الحياة الدينية الاكثر قدماً مع معارضة كل تحوير قرره العرف والتقليد . ولكن الزوال محتم ؛ وتعود آخر وثيقة ذات صبغة دينية — وتدل على ملاحظة فلكية — الى القرن السابع ق.م . اما الصمت الذي يلي فيعني دون شك اضمحلال هذا « المجمع » الكهنوتي ، اضمحلالا طبيعياً . وهكذا تكون ديانة بلاد ما بين النهرين قد دامت قرابة ثلاثة آلاف سنة .

ولا نعتقد بان هذه الديانة قد منحت المؤمنين بها الكثير من الفرح . فقد عاشوا تحت وطأة الخوف الذي اوحت اليهم به والذي كان ينسع بصورة اللزومية من فكرة العالم الالهي الذي صورته لهم . وبقيت المبادىء الاخلاقية والادبية التي قالت بها تلك الديانة تدور في حلقة ضيقة وقد خلت من كل فكرة عقاب او ثواب في عالم آخر بدا كالحاً للجميع ، كما اضعفها الاعتقاد بخطيئة مجهولة يرتكبها الانسان دون وعي . وغدت هذه التعاليم ، كما يظهر ، سلبية قبل كل شيء ، اقله فيما يختص بالعلاقات مع الآخرين . وان اكتفينا بمجموع السؤالات التي كان يطرحها الساحر الباحث عن اسباب المرض الذي يريد ان ينقذ المؤمن منه ، وجدنا بان الواجب الايجابي الوحيد المفروض هو تحرير اسير او اطلاق سراح مكبل . اما الآثام الاخرى التي بحث عنها فهي السرقة والاهانة والعنف . وقبل ان تتلاشى هذه الديانة بزمن طويل كانت حضارات عدة قد نشرت تعاليمها الاخلاقية متخذة اساليب واهدافاً اكثر اختلافاً وشمولا .

ولكن مع هذا لم تندثر تلك الديانة تماماً عندما مالت نحو الافول قبل بدء عصرنا بقليل ، إذ ستعرف امور السحر والتنجيم والرقي — وقد اشتقت جميعها من تلك الديانة — اتساعاً زاهراً في العالم القديم . فقد لاقى « الكلدانيون » في رومة — ولم يكن لهم دون شك من الصفة الكلدانية إلا الاسم وممارسة بعض الاساليب التي هزلت قيمتها الى مرتبة وصفات مبتذلة — منزلة عادت عليهم بالنفع مع ما كان لهم من سمعة غير مستحبة . ومن جهة ثانية ، ان اعتبرنا الصعيد العقلي او بالاحرى العلمي ، فان علمي الطب والفلك كانا قد استفادا كثيراً من الملاحظات الدقيقة التي جُمعت دون ملل في هيا كل بلاد ما بين النهرين

وهكذا فقد غدا لبعض المظاهر التي تمت الى ديانة السومريين والساميين الشرقيين قـــوة فاعلية مستديمة .

ثانياً – الاكتشافات الفكرية

الوثائق

احتفظت الهياكل ، كما رأينا ، اطول زمن ممكن ، بالكتابة الخاصـــة بحضارة بلاد ما بين النهرين . وتقاسم الهيكل والقصر ، طوال المدة التي استمرت فيهـا هذه الحضارة على حيويتها ، تثقيف الكهنة والاستفادة منهم . ولم يفقد هؤلاء المثقفون ، حتى عندما عملوا لمصلحة الافراد او ككتبة عدل ومؤلفين للجماهير ، صفتهم كموظفين او خدمة عند الآلهة . ولدينا عدد لا حصر له من الوثائق الخطية الكلدانية والاشورية . ولم ينشر الكثير منها بعد ، ولكن قد تكشف لنا دراسة الموسوعات التي جمعت منها منذ امد بعيد نصوصاً في غاية الاهمية مرّ عليها لغاية اليوم مرور الكرام . ولكن مهما تعددت اهداف وفحوى هذه الوثائق ، فان لمعظمها صفة ملكية او دينية ، لا بل ان للكثير منها الصفتان معاً .

الكتابة المسمارية

ان تعقيد كتابة بلاد الرافدين يفوق تعقيد الكتابة المصرية ، وهـــذا ما يسهل لنا تفسير الحالة التي ألمحنا اليهـــا اعلاه . ولا نستطيع ان نجزم باسبقية زمنية لهذه الكتابة او لتلك . وتشير بعض الآثار التي عثر عليها مؤخراً في بلاد ما بين النهرين، بان البدء باستعمال هذه الكتابة قد يعود الى النصف الثاني من الالف الرابع . وانطلقت الكتابتان من نقطة متشابهة : رسم شكل يمثل الشيء او الكائن الحي او الفكرة ، ولكن اسهم استعمال الخزف كمادة للكتابة في بلاد ما بين النهرين في تحويل الرسوم التصويرية الى جموع اشارات ضمت بعضها الى بعض عـلى الهوى ودون نظام . وقد تحدد الشكل الاصلي الذي انبثقت عنه بعض هذه الجموع ، ولكن يستعصي حل تفسير الكثير منها : فهناك حالات يرى فيهـــا بعض العلماء يداً تحمل صولجاناً ، بينما يتحدث عنها علماء آخرون بانها تمثل مركبـاً يعلوه شراع ، او برجاً للمراقبة يستند على ركيزة .

وتشبه كل علامة مسماراً ذا رأس عريض ، كمسمار البيطار . وكان الكاتب يرسم هذه العلامة بواسطة قصبة حدد رأسها بشكل منحن او مثلث الزوايا يغرزها في البدء غرزاً قوياً في الخزف ثم يسحبها مخففاً بصورة تصاعدية الضغط على احدى الزوايا. وتكوّن هذه المسامير « الجوانب » العلامات للكتابة المسمارية . وقد تكون أفقيـــة او عمودية او منحنية ، ومراراً صغيرة الحجم جداً ، تتشابك معاً عندما تعود الى جمع واحد وقد رسمت اولاً على الخزف ممـا يسهل تفسير الامور . وبعد ان استقر اسلوب الكتابة هذه بزمن طويل سعوا لحفر العلامـــات المسمارية على المعدن او الحجر ، فغدا من ثم ممكناً الاحتفاظ بالشكل التمثيلي للرسم الاصلي ، كما حدث ذلك

في مصر . ولكن مع هذا استمروا على استعمال الخزف لسهولة الحفر عليه وكـــثرة وجوده . وكان يكفي ان يبقي الكاتب هذه المادة الخزفية رطبة قليلاً ولدنة . وحفـــظ تجفيف صفائح الخزف في الشمس او شيّها الوثائق المكتوبة من اي تحريف اوتزوير . وغالباً ما اعطوا هـــذه الصفائح شكل لوحات مستديرة او مسطحة او قائمة الزوايا .

وصعوبة الكتابة المسمارية متأتية عن كثرة عدد جموع العلامات . ولم يتعد تقسيم الكلمات المقاطع الصوتية التي فاقت من ثم دون شك عدد الحروف. ونتجت هذه الصعوبة ايضاً من تنوع المعاني الممكنة لكل جمع من العلامات ، كما حدث ذلك في الاشارات الهيروغليفية المصرية . فقد يعني الجمع تارة فكرة وطوراً مقطعاً صوتياً ، كما قد يدل ايضاً على صفة، ويختلف معناه ان وضع قبل جمعٍ آخر او بعده .

اللغتان السومرية والاكادية

تضاف الى الصعوبات اعلاه تلك التي تنتج عن تنوع اللغـــات . ويشعر المرء بحراجة الموقف في حال الاختصار وفي حصر الامور على وسط بلاد ما بين النهرين، أي بعد التغاضي عن الاقطـــار والشعوب المغلوبة ، وعن وثائق جهات ايران الجنوبية الغربية العيلامية ونصوص « بوغاز ـكي » في آسية الصغرى.

لقد حدد السومريون معـالم الكتابة المسمارية . ولم تندثر لغتهم إلا رويداً رويداً مع تفوق الساميين عليهم عدداً ونفوذاً . وبقيت وقتـــاً طويلاً تستعمل خاصة في النصوص الدينية التي تحافظ اكثر من سواها على التقاليد القديمة . لذا وجب على كل كاتب ، جدير بهذا اللقب ، ان يفهم ويقرأ ويكتب لغـــة ميتة ، مهما كانت نواقصها ثابتة كعدم ليونتهـا وخاصة قلة وضوحها .

وللاستعمال العادي او السياسي تغلبت لغة سامية الاصل ، تمتـــاز امتيازاً عظيماً بليونة قواعد صرفها وبوضوحها وبمقدرتها على تأدية مختلف انواع الفكر مهما كانت دقيقة : أعني اللغـــة الاكادية التي لم تكن اللغة الاشورية الا شكلاً من أشكالها . ولكن منذ البـــدء تبنتى الكتاب الاكاديون جموع علامـات الكتابة السومرية . وان هم احتفظوا بمعناها للتعبير عن فكرة مـا فانهم مع هذا عدلوا قيمتها كصوت حتى يعطوهـا القيمة الصوتية للمقطع الذي يعبر عن الفكرة نفسها في لغتهم الخاصة . ونتيجة لذلك فان نفس جمـــع العلامات الذي كان له ثلاث معان في اللغة السومرية ، اصبح يلفظ بصورة مختلفة اختلافاً كلياً في اللغة الاكادية ويدل من ثم على معنى حقيقي مختلف جداً .

لذا أصبح التدرب الدقيق والطويل ضربة لازب عـلى كتبة المستقبل . وكان من ثم لزامـاً عليهم ، حتى ولو اقتبسوا ثقافة عالية جداً ، ان يرجعوا في ممارسة مهنتهم الى كتب ومستندات تدلهم عـلى المعاني المختلفة التي كان ممكناً ان يدل عليهـــا اي جمع من العلامات في اللغتين السومرية والاكادية .

وتجدر الملاحظة بأن هذه الصعوبات قد ولدت نتائج مماثلة تقريبـــاً لنتائج شيوع الطباعة والتعليم البدائي في عصرنا الحاضر . فهي وضعت على اقل تقدير حداً لتطور اللغة ، خاصة اللغة المكتوبة ، هذا ان لم تمنع الامر منعاً باتاً . وسعى الكتبة ، وقد اشبعوا من التقاليد ، لحماية هذه اللغة جهد المستطاع من التحريف، ونجحوا تقريباً في هدفهم . ولم يلاحظ حقاً اي انحراف الا في عصر لاحق : وقد زال تصحيح الاشكال الصرفية اثناء السيطرة اليونانية في القرن الثالث قبل عصرنا . ولكن لم تعرف اللغة الاكادية الا تغييرات طفيفة جداً مدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً ؛ ولا يسعنا طبعاً ان نبدي حكما فيما يختص باللغة المحكية .

اللغـــة الأرامية

تفسر هذه الصعوبات وذلك الثبات وداك التمسك المقصود بالقدم النجـــاح الهائل الذي لاقته في الألف الاول قبل المسيح لغة اخرى : اللغةالأرامية .

وقد نجد اسباباً اخرى لتعليل هذا الفوز . فالقبائل ، وهي سامية ايضاً ، التي نطقت بهذه اللغة انتشرت في مختلف مناطق آسية العليا تقريباً .. ولعب الاراميون دوراً تجارياً هاماً مما ساعد على انتشار لغتهم التي عدّت والحالة هذه شبه لغـــة « عمومية » اخضعت لسلطانهـــا رويداً رويداً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقـة والتي لم تنجح أي منها في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي اتخذها لغة وطنية . ورافق انتشار الكتابة الاراميـة توسع اللغة الارامية ، واتخذت عن الفينيقيين أبجدية ابسط بكثير من الابجدية المسمارية ، وكتبت بالحبر على مواد أخف وزناً واسهل تداولاً من الخزف كالرق او البردي . ومنذ القرن الثامن كتبوا على لوحات مختصراً باللغة الارامية للوثيقة التي سجلت بكاملهـا بالكتابة المسمارية . واستخدم الملوك الاشوريون في قصورهم « كتبة عـلى الرق » ، اعني للكتابة باللغة الارامية ، و « كتبة على اللوحات » اي للكتابة باللغة الاكادية . وغدت الارامية ، اثناء الحكم الفارسي ، لغـــة الادارة ، واضحت من ثم اساس وحدة الامبراطورية السياسية .

ولكن لسوء حظ المؤرخين العصريين ، فان البردي والرق هما اقل مقاومة لعوامل الزمن من لوحة الخزف المشوية أو فقط المجففة ، ومن ثم عرضة للزوال اكثر منها .

المؤلفات الادبية

قدمت اللوحات والنقوش على الحجر أو النحاس نصوصاً مختلفة المواضيع . فمنها ما هو قانوني : القوانين ، الوثائق القضائية ، العقود المختلفة النواحي . ومنها ما هو اداري : المراسلات الرسمية ، مستندات المحاسبة . ومنها ما هو تاريخي : سجلات المُلك ، تقارير وجهت لاله عن غزوات شنها العاهل ، اخبـار المدينة او الهيكل . ومنها ما هو ديني : الصلوات ، والمستندات عن المؤسسات الخيرية ، والتقارير عن مراقبـــة النجوم او احشاء الذبائح ، والرقى السحرية الخ . ولكن للبعض من هذه الوثائق الكثيرة العدد والشديدة التنوع نفس شعري أو نفحة أدبيـة . وهكذا باستطاعتنا ان نتحدث عن أدب بلاد مـا بين النهرين ، هذا الأدب الذي لا يخلو من روائع .

ولا تخلو بعض كتابات ملوك الاشوريين التي تسرد لنا مغامراتهم الوحشية من عظمة فطة . ويحدد تغلتفلاسر الاول نفسه قائلاً : « بهار مشع يبهر سناه المناطق الاربع ، شعلة وهاجة تهيمن على البلد العدو كمطر الزوبعة ». وهوذا اشوربانيبال يخبرنا عن اجتياحه مدينة سوره وبلاد سوسه : « في شهر من الايام اخضعت عيلام في كل مساحتها ؛ وضعتُ حداً في اريافها لصوت الانسان ، ولوقع حوافر القطيع الصغير والكبير ، ولهتافات الغبطة ، وتركتها مسرحاً لحمار الوحش والايّل وجميع اصناف الحيوانات البرية » . ولا تنقص هذه الامثلة الدرة الملحمية والخيالات التصويرية والاستعارات .

وقد تنتهي هذه التصاوير بالغموض ، خاصة في النصوص الدينية ، التي تجنح غالباً نحو السر . وباكراً جداً ، ولربما منذ العهد السومري او على اقصى تقدير في عصر حمورابي ، بدأوا ينسجون الاساطير الميثولوجية ويدونونها . وقد توالى الكتبة احياناً بعد اجيال ، ولقرون عدة ، على نسخ هذه الاساطير دون ان يخشوا تحريفاً او تحويراً . وتعد هذه الاساطير اساس ادب بلاد ما بين النهرين الكلاسيكي .

الاناشيد الميثولوجية الكبرى

ستتوقف هنا على نشيدين من هذه الاناشيد ، وهما مشهوران بصورة خاصة وعن استحقاق . والاول هو « اوما اليش » اي « عندما في الاعالي... » ، ودعي كذلك نسبة للكلمات الاولى . وقد دعاه المعاصرون ايضاً « نشيد الخلق » ، لانه يخبرنا كيف تنظم العالم خارج الفضى الاولي . واول الامر تميز الماء العذب عن الماء المالح ، وعدا الواحد شفعاً للآخر ، ثم ظهر الصوت او العقل وكان لهما خادماً . ومن هذه الاوليات ولدت الآلهة ، زوجاً زوجاً ايضاً . وثار بعضهم على بعض ، وبعد عراك لا هوادة فيه انتصر احدهم — وقد يتغير ، فهو مردوك في الاسطورة البابلية ، واشور في الرواية الاشورية — وغدا من ثم منظم العالم ، خالق الكائنات الارضية ، اي الانسان والحيوان .

ثم « ملحمة غيلغميش » التي تحكي لنا في روايات عدة مغامرات مؤسس مدينة اوروك وملكها ، وهو انسان حقيقي ولكن ألّهته الاسطورة . ونجد في هذه الملحمة ايضاً قصص صيد ، وسرد معارك ، وحوادث عراك ضد الوحوش ، واخبار الطوفان ، وقصة السطو على النبات الشائك الذي يؤمن فتوة دائمة ثم فقدانه ، وذكرى اخي سلاح قد مات . ويكفي هذا المختصر « المفيد » ليوحي لنا بالصدى الذي لاقته هذه الملحمة خارج بلاد الرافدين . وليس من العبث دون شك ان نأخذ بعين الاعتبار المقارنة التي تفرض نفسها بين هذه الملحمة وذاك الفصل من سفر التكوين او من الاوديسه *Odyssée* او من اسطورة هرقل .

المكاتب

منذ عهد حمورابي انشأت بعض الهياكل مكاتب حيث حشرت اللوحات ، وقد صنفت بعناية استناداً الى موضوعها ، في سلال تحمل عناوين من الخزف ، حسب مبدإ استعمل ايضاً لتصنيف المخطوطات وحفظها .

وقد قام بعض الملوك بهذا العمل ايضاً في قصورهم ، غير ان ايّاً منهم لم يظهر في هذا المجال جهداً او مثابرة مثل اشوربانيبال الذي كان يفخر بأن الآلهة وهبته « كل علم الكتابة ». وكان يأمر موظفيه كي يتحروا عن الوثائق والكتابات ويرسلوا الى القصر الاصول او أقله نسخاً عن كل النصوص الطقسية والدينية والسحرية والفلكية والتاريخية الخ . وكان يختتم رسائله بنصائح من هذا النوع يبعث بها الى ممثله في بورسيبا في بلاد الكلدان : « وان وجدت بعض لوحات او نصوص طقسية لم اطلبها منك واعتبرتها مفيدة لقصري ، فانتخب وارسلها الي » . واستطاع العلمـــاء الانكليز ان يكتشفوا في خرائب نينوى ألوفاً من اللوحات التي تعد اليوم من أغنى ثروات المتحف البريطاني .

ويثبت جمعها في قصر اشوربانيبال الاحترام العميق الذي كانوا يبدونه لكل عمـل حققه العقـل البشري في الاجيال السابقة وترك له اثراً مكتوباً . وغدت هذه اللوائح موضوع غزو كالخيرات المادية فهي تغني المرء دينياً وعلمياً . ولم يتوفر مثل هذا الاهتمام في أي عصر منذ ان وجـد الانسان ، وسعى بعضهم لتأسيس امبراطوريات . ويعتري هذا السعي دون شك شيء كـثير من الخرافات الدينية . ولكن يظهر المدى الذي وصل اليه بأنه اخذ يسبح علمانيـاً . وهو يعبر من ثم عن توق لمعرفة جامعة يحذر على اي ان يسخر منها .

العلوم : الطب وعـلم الفلك

رأينا كيف تفتح الدين عن علوم تشابكت مع معارف اخرى وان لم تتعد هذه وتلك المهد فانها مع هذا ذات اثر وقيمة .

وعالج الطب المريض ، كما لو انه ارتكب اثماً او مسه شيطان أقله . لذا لم يلس قط اللجوء الى الطقوس الدينية لينقذه من الروح الشريرة . ولكن بدأ رويداً رويداً يقرن الى هذه الأساليب أدوية معدنية أو نباتية أو حيوانية ، فعالج بالنبات والنحاس والرمـاد والدم والبول والشحم والزيت ومواد اخرى ووافق لاستعمالها بين تعاليم التجارب ومعطيات السحر ، اذ ، مع تحديده الكلمة التي يجب ان تعطى ، لم يتناس المناسبات الطقسية للبحث عن هذه المواد واستعمالها .

وساقت مراقبة طوالع الفلك والاشارات التي تدل على ارادة الآلهـة الموافقة او المخالفة الى علم النجوم . فدرسوا الكواكب وراقبوا حركاتها الظاهرية واتفاقها مع شروق وغروب الشمس فحددوا من ثم السمت ومنطقة الابراج ، وتوصلوا الى نتيجة على جانب عظيم من الأهمية اعني التقويم السنوي .

واتّبع دوماً هذا التقويم السنة القمرية ، وجعل بدء الشهر يتفق مع ظهور الهلال . ولكن غدا لزاماً ان يضاف من وقت الى آخر الشهر الثالث عشر وذلك لاعادة التوافق مع فصول السنة . وكان الملك يقرر هذا الادخال بالاتفاق مع السحرة . واخيراً ، وعلى اكثر تقدير سنة ٧٤٧ ق.م. عرفوا بأن عدد ايام مئتين وخمسة وثلاثين شهراً قمرياً يعادل بالتدقيق عدد ايام تسعة عشر عاماً شمسياً . وهكذا أضافوا سبعة اشهر قمرية بعد مرور فترة تبلغ تسعة عشر عاماً . ولكن متى تجري

هذه الاضافة ؟ واستمر القصر يصدر الاوامر بذلك . ولم يعين مبـــدأ وقت الزيادة بصورة مستديمة الا اثنـــاء السيادة الفارسية سنة ٣٦٧ ، إذ قرروا اضافـــة الشهر المشار اليه ست مرات في الربيع ومرة في الخريف في بعض السنوات المحددة في دور يعد تسعة عشر عامـــاً . وهذه نتيجة فضلى سمحت للمؤرخين العصريين ان يعرفوا ، بالاستناد الى علمـاء الفلك ، تحديد كل تاريخ يذكره التقويم البابلي دون ان يتجاوز الغلط الممكن يوماً او يومين — وذلك باعتبار الايام التي حالت فيها طبيعة السماء دون مشاهدة الهلال الجديد .

الرياضيات وعلم الموازين

فرض استعمال نتائج عـــلم الفلك هذا معلومات رياضية جمـة . اذ كان السومريون فعلاً قد اكتشفوا واستعملوا نظاماً « ستينياً » كاملاً وفّق معه فيما بعد نظام عشريّ . وقد طبق مراقبو النجوم هذا النظام بسرعة ودقـة لا مثيل لهما في العصور القديمة قبل يونان القرنين الرابع والثالث .

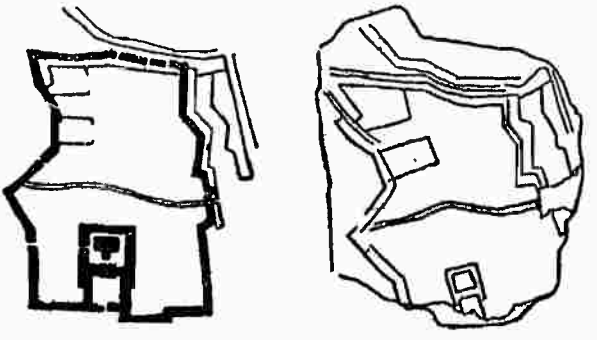

الشكل ١١ - رسم نيبور

١ - على لوحة مسمارية ؛ ٢ - حسب اعمال التنقيب الحديثة

واخترعوا باكر جداً نظاماً للموازين والمقاييس قورن ، نسبة لما فيـــه من توازن داخلي ، بنظامنا المتري — وكان ذلك نتيجة حتمية لما بلغته الحيـــاة الاقتصادية من اتساع ومدى ، اذ يستحيل ان تنشط التجارة والملكية العقارية دون وجود عيارات ثابتة ، واتخذت الوحدات الاساسية من قياسات الطول — ومن تربيع احداها كوّنوا سلسلة مقاييس المساحة ومن تكعيب اخرى اوجدوا سلاسل المكاييل للاجسام السائلة والجامدة . واشتقت سلسلة الموازين من حجم كمية ماء .

وتسهيلاً للحساب وضعوا جداول معينة . وكان هناك نماذج من اعمـال حسابية او هندسية وضعوا لها طرائق حل : وهكذا توصلوا الى حل اعمال من الرتبة الثانية والثالثـــة ، بتطبيق قواعد عملية سهلة .

قاسوا بدقة المسافات والطرق ، ووضعوا الرسوم الهندسية للمنازل والقنوات وحتى المدن . وقد اثبتت افعال الحفريات التي اجريت في نينوى دقة رسومهم. ووصلت الينا خريطة عن العالم، قديمة جداً دون شك ، وهي تضع ولا جرم بلاد ما بين النهرين في وسط الارض. ويمتد حواليها المحيط او « النهر المر »، وعلى مسافة ابعد تنبسط اراض اخرى، ارض الشمال المدعوة « البلاد حيث لا يرون الشمس » ، ولكن من غير الحكمة ان نفكر بان البابليين عرفوا الليل القطبي .

وهل بالامكان التحدث عن العلوم الطبيعية ؟ ان مثل هذا التعبير دون شك هو من الكلفة على شيء كثير. ولكن لدينا اقله عدة جداول قديمة العهد للنبات والحيوان وضعت دون شك بكل دقة .

ولا يكشف النقاب دوماً عن المبدإ الذي هيمن على هذا التصنيف ، لا بل يبدو بانه اعتُمد على المظاهر اكثر من اللازم كعندما صنفوا مع الحجارة نواة التمر او الدرد . ولكن هناك جهد واضح للاتيان بتصنيف وتنظيم عملي : فيجمع جدول واحد النباتات التي تحوي القلى ، والتي يمكن استعمالها كتوابل الخ .

ذهابا من المواد التي تقدمها الطبيعة درجت الصناعة المعدنية والكيمياء اولى خطواتها .

وكان الحديد اولا نادراً ، اذ يستعملون فقط الحديد الذي يجدونه صالحاً للاستعمال ، خاصة الذي يمت اصلا الى النيازك ، لذا حصروا استعماله لصنع الحلى ؛ لا بل قد يرصعون الذهب فيه . ولكن ، حوالي آخر الالف الثاني، اتسع مدى استعماله اذ عرفوا كيف يستخرجونه من المعدن. واتصل بهم هذا الاسلوب من اوروبة ، وقد حملته الى بلاد ما بين النهرين ، والى كافة اقطار الشرق ، الشعوب التي بدأت تفد منذ القرنين الخامس عشر والرابع عشر ؛ واقتبست بلاد الرافدين هذا التقدم اما باحتكاكها مع هذه الشعوب او لانها تعرضت الى غزواتهم ، فغدا استعمال الحديد فيها امراً عادياً منذ الالف الاول .

وبالعكس فان كيفية صنع الزجاج الذي تزينه المينا هي اقدم بكثير ، ولدينا نص مكتوب لهذه الطريقة وهو يحدد المواد الواجب استعمالها وكميتها المفروضة . ويعود هذا النص الى اوائل الالف الثاني ، وقد كشفت لنا اعمال التنقيب القناع عن لوحات زجاجية من هذا النوع تعود الى عصر اشد قدماً : فلا عجب والحالة هذه ان غدا هذا النص نسخة او اقتباساً من نص يفوقه قدماً .

ويسود هذا النص غموض مقصود : فان كاتبه اتخذ ، وقد أراد ان يسجله خطياً ، كل تحفظ وحذر كيلا يكشف القناع عن الاسرار التي يحويها ، اذ تحتفظ هذه الصناعة بعرى وثيقة مع السحر والعرافة ، كما هو الحال ايضاً دون شك في الصناعة المعدنية حيث نلاحظ أقله مثل هذا الحذر : اذ لا يجدر العمل إلا في ايام معينة وساعات محددة ، بعد مراقبة بعض الدلائل ،

والتلفظ ببعض الكلمات . ولا يجب ان يقودنا هذا القول الى علم الكيمياء : فالطريق ، وهي حتى الآن واحدة ، لم تتفرع الا في وقت لاحق فقط فظهرت لنا اذ ذاك طريق ثانوية ستؤدي بنا الى « العمل الكبير » .

الحقوق : العقود

هل نُدخل في الأدب او العلوم او الفنون الاختراعات القانونية التي أوجدها سكان بلاد ما بين النهرين ؟ ولا نحيد عن الطريق السوي ان اعتبرناهـا ضمن أي من هـــذه المجالات ، أو ضمن مجالات اخرى ايضاً ، اذ أجبرنا على التحدث عنها اكثر من مرة . وعلى كل حال فانها حقاً مؤثرة .

تظهر لنا الاتفاقيات المسجلة على اللوائح ، مهما توغلنا في القِدم ، قانوناً خاصاً في غاية التطور ، وبالدرجة الاولى في كل ما له علاقة بالعقود ونقل الملكية . وتكفي ضرورة تثبيت شروط أي عمل من هـــذا النوع بصورة خطية ، تحت طائلة البطلان ، لدعوة العقل الى تنظيم منطقي في مختلف الميادين ؛ وقد اكسبت هذه الضرورة الاعمال المحكي عنها صفة الثبوت والتأكيد الحقيقية . ولم تتعثر هذه العقود بنظام مفرط من القيود الشكلية . ولكن حوت هذه القيود ، مع التحديد الواضح للفرقاء وللموضوع ولشهود الاتفاق ، بعض التأكيدات التي تتناسب وتحليل العقد المنوي اجراؤه كعمل قانوني تحليلاً دقيقاً وبيان المصالح المتضاربة وما قد ينشأ من منازعات .

القوانين : قانون حمورابي

تبدو القوانين ، ومنها ما يعود الى اواخر الألف الثالث ، اكثر وقعاً في النفس ايضاً . وقد زادت الاكتشافات الحديثة عددهـا : ففي سنة ١٩٤٨ نشرت بعض اجزاء الشرائع التي سنها بيلالاما ، احـد ملوك اشنونا ؛ كما أشير سنة ١٩٥٢ الى شرعة أور ـ نامو ، وهو من ملوك أور الذي يفوق بيلالاما قدماً . ولكن كل هذه السنن هي دون قانون حمورابي أهمية وشهرة .

وبكل تأكيد فان هذا الصيت متأتٍ جزئياً عن المسلة العظمى التي عرّفتنا بهذه الشرائع . ويدعو تاريخ هذه المسلة الى العجب ! فحوالي سنة ١١٧٥ ق.م. ساقها شوتروك ناخونته ملك سوزه ، كجزء من الاسلاب التي غنمها من بلاد بابل ؛ ووجدت سنة ١٩٠٢ بين انقاض عاصمته ، وقد قامت بهذه الحفريات البعثة الفرنسية في بلاد فارس ، مما اكسب متحف اللوفر حق ملكيتها . وتدعو الى العجب ايضاً هذه المسلة بحد ذاتها : وهي عبارة عن اسطوانة من الحجر الاسود الصلب مخروطة الشكل يبلغ ارتفاعها ٢٫٢٥ م ودائرة قاعدتها مترين . وفي اعلى وجه المسلة نرى نقشاً يمثل الملك واقفاً في وضع المتعبد امام شمش ، اله الشمس والعدالة ايضاً ، تدلنـا عليه شرارات تقدح من كتفيه . وتغطي كامل وجه النصب رموز مسمارية صنعت على شكل عمد ، أتى الفاتحون على بعضها بالمطرقة ، كما طرق ايضاً القرص الشمسي الذي كان يعلو هام الاله ! ويعد النص نحو ٣٦٠٠ سطر .

ولكن بصرف النظر عن هذا النصب الذي لم يكن وحيد دهره اذ كشفت اعمال الحفر ، في

سوزه ايضاً ، نسخة عنه ، فقد اكتسب هذا القانون شهرة حقوقية فائقة في كل اقطار الشرق الادنى. ونسخ هذا القانون على لوائح ولاقى رواجاً في اقطار بعيدة جداً عن بلاد ما بين النهرين واثر من ثم في قوانين شعوب غريبة عن امبراطورية حمورابي .

وقارن اكثر من معاصر هذه الشرائع مع قانون نابوليون . وتسري هذه المقارنة دون شك ان اعتبرنا انتشار هذا القانون ومدى تأثيره ، ولكنها قد تقود الى الخطإ فيما يختص بمفهوم النص وروحه . فبعد استهلال، يعتبر قطعة ادب ديني وسياسي ومعنوى رائعة ، يعلن« محاكمات عدالة » تهدف الى « اقامة الحق في البلاد » وقد قررها حمورابي ، « ملك الحق الذي وهبه شمش العدل » نقرأ ٢٨٢ قضية . ويبدأ معظمها بهذه الكلمات « لما كان ... » ثم تحدد كل منها حالة عملية معينة ، وتنتهي بقرار يحكم بهـا . وان نحن امنينا على هذا التشبيه الذي اقره الزمن ، باستطاعتنا ان نعتبر هذه القرارات كمواد قانون ، صيغت بلغة في غاية الدقة والوضوح ، تقضي جهد المستطاع على كل إشكال وغموض . وان نحن لاحظنا ترتيباً نسبياً في تصنيفها ، فاننا نعجز مع هذا ان نتحدث عن مواد قانونية وضعت بصورة منطقية متراصة تسيغ لنا ان نرى من خلالها تطبيق نظام شرعي بالمعنى المحصور .

اننا نلمس دون شك بعض الاتجاهات العمومية : تثبيت استمرار الاسرة بواسطة الولد، تأمين الملكية مهما اتخذت من الاشكال الخ، ولكن نلحظ ايضاً امتزاج مبادىء تختلف لا بل تتناقض . فمثلاً نرى العقاب او التكفير ، ومبدأ دم بواء دم او التعويض . وبصورة تبدو مستهجنة يطبق هذا المبدأ او ذاك تبعاً لمركز الصحية الاجتماعي : فالرجل الحر الذي حطم اسنان رجل حر يفقد اسنانه ، ولكنه يكتفي بدفع ثلث «كيل» فضة [1] الى من دونه رتبةو احدث له مثل هذا الضرر ؛ والذي يسبب باعتداء اجهاض وموت ابنة رجل حر يشهد مقتل ابنته ، ولكنه يدفع نصف او ثلث مثقال فضة ان كانت ضحيته ابنة عبد او شخص دونه رتبة . ونرى مثل هذا التفاوت في مجال التحقيق : تقبل الادلة وتعد البينة الشخصية منها مع تقرير عقاب صارم للشهود الكذبة ، ولكن قد تعرض اليمين « امام الاله » ، اعني يطلبها الاله ، او الملك ايضاً ، لا بل يلجأون في بعض الحالات الى اساليب التعذيب فيلقون في « الاله ـ النهر » اعني الفرات من اتهم باستعمال السحر او الامرأة المتهمة بالزنى . ونلمس بكل سهولة من خلال هذا الوضع اثر تطور في الحق الجزائي او الآداب ، لا يزال مستمراً ، تباطأ هنا وتقدم هناك .

وهكذا فاننا بالاحرى امام مجموعة قرارات ملكية ـ وليس قوانين ـ لحل بعض حالات تبدو غالباً على جانب من الصعوبة واللبس ، لا بل منها ما هو لربما وهمي وغير حقيقي: وتعرض علينا هذه القرارات كأنها اجتهادات محاكم وذلك لتوحيد احكام القضاء . واكثر ما يمكننا قوله باننا امام كتابة تقاليد قانونية كانت تنفذ لذاك التاريخ في وسط الامبراطورية، ثم قررت الارادة الملكية تعميمها على جميع المناطق التي تهيمن عليها .

١ ـ يعادل الكيل ٥٠٥ غرامات من الفضة .

وبقي علينا في هذا المجال ان نعرف جواباً لسؤال قد يطرح: هل نفذت دوماً هذه الاوامر، وحمورابي لا يزال حياً ؟ اذ نرى اكثر من لوحة ، فيما يختص بالنقود ، لا تتقيد بنصوص هـذا القانون ، وهذا ما يحملنا على الاعتقاد بان العادة المتبعة او ارادة المتعاقدين قـد احتفظتا بقوة اشد من الاوامر الملكية .

وتُظهر لنا عوامل مماثلة قوانين بلاد الرافدين الاخرى ، التي يرتقي بعض منهـا الى زمن اشد قدماً . وتعبر كلها عن جهد ملحوظ هو اجتماعي واقتصادي اكثر مما هو علمي . وقد اراد واضعوها ان يكسبوا مختلف علاقات البشر المبدأ القانوني،ويضفوا عليها صفة الشرعية والتأمين، ولكنهم لم يخلقوا ، لا بل لم يلحظوا هذه الربط المسندة الى القياس العقلي الذي هو القانون .

حدود الجهد الفكري

وتفرض ملاحظة مماثلة نفسها على معظم مجالات نشاط حضارة بلاد ما بين النهرين العقلية : فهي لم تتعد حدود التجربة والعمل . لقد أجاز علماء بلاد الرافدين المراقبـة الدقيقة ، وسجلوا ملاحظاتهم بسداد واحكام ضمير . وهم قد صنفوها وقابلوا بعضها ببعض . ولكنهم لم يستنتجوا من ذلك الا سلسلة من السوابق الواقعية والنصائح العملية ، ولم يرتقوا في اي مجال الى الجو النظري المجرد ، ولم يسعوا الا لمعرفـة اسباب ما لاحظوه .

حتى ان الرياضيات نفسها ، وهي علم نظري في الدرجة الاولى ، اتخذت معهم مجرى غـير مجراها : لقد استوقفتهم المسائل الرياضية ، واشاروا الى الطرق الواجب اتباعها لايجاد حل لها . وهكذا توصلوا الى هذا الحل الصحيح ، ولكنهم لم يعللوا ذلك قط علمياً ولم يحللوه ، بل اكتفوا بانهم وجدوا سر النجاح،وذلك دون شك بعد ان تلمسوا الحل مرة بعد مرة او اجروا التجارب المتعددة . وينطبق هـذا القول على مختلف مجالات معارفهم . وهكذا فان معارف بلاد ما بين النهرين بقيت عملية بحتة – حتى انها لم تصبح تجريبية ، مع ان المبـدأ التجريبي يعتمد في بعض مظاهره على الاختبار – ولم ترتفع الى مستوى التنظيم القياسي .

وكيف يمكن ان تكون الحالة على غير هذا نسبة الى العرى الوثيقة التي كانت تشد العلم الى الدين ؟ فقد اعتبروا العلم كأنه الهام او وحي ، كأنه هبة يمنحها هذا الاله او ذاك الى الانسان . لذا اكتفى الانسان بالمراقبة والتطبيق : وما كان عليه ان يفقه الكنه والسبب .

ونتج الجمود عن هذا الوضع العقلي بصورة لا مفر منها . وحيث ان المعرفة هي هبـة من الآلهة فلا بد بانهم منحوها ، باكراً جداً ، الى الاجيال القديمة التي سبقت الجميع في مجال التقوى والطقوس الدينية . لذا غدا واجب الجيل الحاضر الرئيسي جمع عناصر هذه المعرفة وتسليمهـا الى الغير ، ومن العبث من ثم ان يطمع الى زيادة شيء عليها ؛ وكما هو الحال فيما يختص بالعقائد والاعمال الدينية ، الذي لا تكون معرفتها الا أمراً تبعاً ، فان الكمال محصور في الماضي وليس في المستقبل .

ومن هنا نجد تفسيراً لهذه النسخ التي لا عد لها ، وهذا الترديد المستمر، وهذا الخنوع لاعادة ما كتبه السلف . وفي هـــذا الفصل لم يرد إلا نادراً ذكر الاشوريين ، وبصورة شاذة بصفتهم مخترعين . فهم وقفوا نفسهم على جمع تراث فكري وصيانته جهد المستطاع. ولجهود اشوربانيبال التي هدفت الى جمع كل ما كتب سابقـاً في مكتبة قصره بنينوى مظهر رمزي : فليست معرفة جميع الامور التي يسعون لتسهيل اكتسابها نقطة انطلاق نحو حلق آفاق جديدة اوسع مدى ، ولكن يعد هذا الاكتساب هدفاً نهائياً بحد ذاته . واعتُبرت بابل في عهد حمورابي مثالاً يحتذى به . وقد جمع فيها حقاً كنز زاه من الثروات العقلية . ولكن الى اي حد غدت هذه الثروات ، حتى في القسم الاول من الالف الثاني ، فتحاً جديداً حققه البابليون معاصرو تلك الحقبة ؟ قد يكون فضلهم ضعيفاً جداً اذ اثبت اكثر من اكتشاف حديث بان ما نقلوه وجمعه كتبة حمورابي يعود الى ماض سحيق ، ليس فقط من حيث الاصل بـــل ايضاً من حيث النسخ المباشرة التي اخذوا عنها .

الفصل الرابع

الآثار الفنيـــة

لن يعجب احد اذا وجـــد بان فن بلاد الرافدين قـــد ساده ، منذ بدء وجوده الى آخر عهده ، الحدث الديني والحدث الملكي ، ويرجح الاول كثيراً على الثاني اذ يتغلغل فيه ويكون دوماً له سنداً : فالدين هو دائماً مصدر الوحي الجزئي اقله للفن ، هذا ان لم يكن غالباً المصدر الوحيد . ولا يحسب أي حساب للمبدإ القائل « الفن للفن » اذ يقتضي بالدرجـة الاولى ان يستجدي المرء نعم الآلهـة باظهاره تعبده لهم . ولا يتنكر قط الملوك لهذا الامر ان هم شيدوا الهياكل او وضعوا فيهـــا تقادمهم التي تفوق تقادم المؤمنين السذج أو أقاموا وزينوا منازلهم الخاصة . وهكذا ، واذ لم تنتج ضرورة تأمين الحياة في العالم الآخر اي فن مستقل — حتى ان قبور اور « الملكية » مدينة بقيمتها الفنية لاثاثها ، الذي هو اثاث ارضي ولا تهم تاريخ فن العمارة الا لأنها تثبت استعمال الحنية والقبة باكراً جـداً — فان الهياكل والقصور هي الابنية الوحيدة المهمة ، لا بل الهدف الوحيد للفن الذي تنحصر رسالته بتشييدها لحمى سكانها وحراستهم ومجدهم وسرورهم .

المدن والحصون

مع ان كلمة « فن » تفوق كل مستوى في هذا المجـال ، يرغب المرء مع هذا ان يتمثل التجمع المدني في شكله المادي لهذه الحضارة حيث لعبت المدينة منذ اقدم العصور دوراً هاماً . ولكن سرعة عطب مواد البناء وتنضيد المساكن المتتاليـة في نفس المواقع مدة آلاف من السنين لا يجيزان لنا معرفة البيوت وتنظيم المدن الداخلي معرفة حسنة : ولا يتعدى ما نجده اليوم ، ليصبح مادة بحث ، انقاض المباني الكبيرة التي يصعب جداً مع هـــذا تفسيرها لما حل بها من ترميم وتبديل . وباستثنائها فالسور هو عنصر الهندسة المدنية الذي يسهل معرفته اكثر من غيره .

ومن الطبيعي بأن يأتي الاشوريون في هـــذا المجال بتحسينات ملموسة ، ان لم يكن بامور جديدة كلياً : اذ غدت الحرب همهم الرئيسي بشكل لم تعرفه اي جماعة بشرية سكنت بلاد ما النهرين . واذ سعوا لحماية سيادتهم ضد الثورات الداخلية والغزوات فانهم اكثروا الحصون وحوّطوا بالأسوار قصور ملوكهم . ووزث عنهم هذه الاساليب ملوك الدولة البابلية الجديدة ،

حتى ان اعمـــال الدفاع التي أقاموها حول عاصمتهم أثارت ، في العهد الفارسي ، اعجاب المسافرين اليونان :

وكان للمدن القديمة دون شك أسوار مستديرة الشكل تقريباً تشبه أزقة ضيقة تتشابك دون اي نظام . وغالباً ما احتفظ الملوك الأشوريون بما وجدوه ليس فقط في المدن التي أخضعوهـا وأقاموا فيها الحاميات ، كتل برسيب (وتعرف اليوم بتل الاحمر) على منعطف الفرات ، بل ايضاً في المدن الوطنية القديمة كمدينة اشور . وقد استرعى الانتباه ما قاموا به من اعمـال فنية حتى على هذه المواقع القديمة ، اذ يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون اشور : ارصفة من الحجر والآجر المشوي على طول دجلة واحدى القنوات ، وحفرة نحو السهول قد تملأهـــا المياه يبلغ عرضها عشرين متراً وعمقها خمسة عشر متراً ؛ واسوار من الداخـــل والخارج يبلغ ارتفاعهـا نحو اثني عشر متراً تتخللها ، كل ثلاثين متراً تقريباً، ابراج ناتئة ؛ وقلاع ضخمة في الاماكن المعرضة للخطر الخ .

ويزداد التقدم وضوحاً عندمـــا ينشىء الملوك مدناً جديدة ويكونون اذ ذاك احرار التصرف . وقدمت لنا حفريات خرساباد اشهر مثـل على ذلك في قصر شيده سرجون الثاني حوالي اواخر القرن الثامن يدعى دور – شرّوكين اي« حائط سرجون ».وقد حلّ هنا الشكل الهندسي المتوازي الاضلاع محل الشكل المستدير وان لم تظهر هنا الصفة العمودية كاملة ، خلافـاً لما اعتقده المنقبون منذ مئة سنة ، فان مجموع البناء يشكل رسماً هندسياً واسعاً مربع الاضلاع وقائم الزوايا تقريبـــاً ، يبلغ عرضه نحو ١٨٠٠ م وطوله ١٧٠٠ م ومساحته ٣٠٠ هكتار . ويشمخ على اساس من الحجر حائط من اللبْن يتجاوز ارتفاعه وعرضه عشرين متراً، وتجد خارج الحصن حيطاناً عدة ذات زوايا ، وسبعة ابواب منيعة وعدداً من العرصات والغرف والمنحنيات تحمي مداخل المدينة (الشكل ١٣ صفحة ١٩١)

ومهما بدت خرساباد جبارة ، فلا شيء يفوق من حيث العظمة والضخامة اسوار مدينة بابل الخارجية التي شيدها نبوخذنصر ، وهي ايضاً مربعة الاضلاع تمتد على طول ١٨ كلم تقريبـاً ، مع حيطان مزدوجة يلتصق بعضها ببعض تعززها الابراج . وعلاوة عـلى هذا كان يحدد سور آخر المدينة الداخلية ، وهي اقل مساحة ويلجون اليهـا بأبواب ضخمة مزينة ومتينة ، أهمها اليوم باب إشتار (الشكل ١٤ صفحة ١٩٧) لانه حفظ بحالة احسن من سواه .

وفي كل ناحيـــة شيدت البنايات العظيمة كالهياكل وخاصة القصور الملكية لتصبح معاقل الدفاع الاخيرة ، وقد كوّنت بحد ذاتها قلاعـاً تستطيع ان تقاوم زمناً طويلاً كل حصار ، اذ ارتفعت حولها الاسوار بما فيها من ابراج ذات شرافات ومرام .

واستنفد هذا الجهد البشري والفن الهندسي دون جدوى ، اذ اهملت دور ـ شروكين ، مما يفسر لنـــا كيف حفظت الى يومنا بصورة تمتّ الى الاعجوبة . واستولى المنتصرون الماديون

والبابليون على اشور ونينوى ودمروهما وجعلوهما طعمة للنيران . ووقعت بابل بدورها في قبضة الغازي الفارسي ، وتقترن اسطورة بلشاصر « مَنا تِقل وفرسين » باسطورة كومة حطب سردانابال . ولكن يظهر وجود هذه الاساطير الى أي حد سيطرت سطوة الامبراطرة الاشوريين على المخيلة . وسيقتبس فن اقامة الحصون عند اليونان الكثير من مثيله الذي ازدهر في حوضي دجلة والفرات .

ويسري هذا التأكيد ايضاً على فن تشييد المدن وقد فرض السيد رسماً منسقاً للمدن التي شيدها أو جددها ، اذ ان فن بناء المربعات الهندسي هو من وضع بلاد ما بين النهرين الشرقية : ولم يجدد هيبوداموس رجل ميله *Milet* ، عندما قرر تصاميم بيره *Pirée* في القرن الخامس ، الا في نقل هذا الفن للمرة الاولى الى اوروبة . وقد اعطى الاشوريون الرسم والمثال للأعمال الفنية الضرورية لتجمع بشري كبير . وجلب سنحاريب الى نينوى مياه الجبال بواسطة قناة حملها فوق واد « جسر من الحجارة البيضاء » يبلغ طوله ٢٨٠ م ، وعرضه ٢٢ م ، وارتفاعه ٩ امتار .

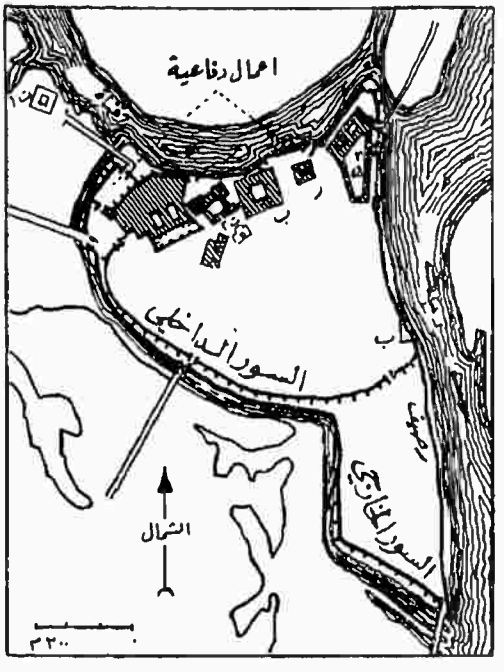

الشكل ١٢ - مدينة اشور

قبل تدميرها بوقت قليل في اواخر القرن السابع قبل المسيح
ب ، قصر ؛ ت ١ ، بيت اكيتو « بيت السنة الجديدة » بيت الاله اشور الريفي ؛ ت ٢ ، مجموعة اربعة هياكل وبملك احدها زقوراتين ؛ ت ٣ ، « بيت جبل البلاد » هيكل الاله اشور الكبير ؛ ز ، الزقورات الكبرى كرست في اول الامر لأنيل ثم لأشور .

ولكن تبقى كل هذه الامور قليلة الاهمية نسبياً ازاء الاكتشافات المدهشة حقاً ، غالب الاحيان ، والتي ازاحت الستار عنها اعمال التنقيب التي اجريت حيث شيدت القصور والهياكل . وقد بذل البناؤون لوقاية هذه الابنية جهوداً وتضحيات مادية اكبر ، كما غدت ملاحظات علماء الآثار اكثر دقة وقد اجروا اعمال تنقيبهم في مساحات صغيرة لان هندسة البناء الديني والملكي فاقت دون شك عظمة وابهة كل هندسة وبناء آخر ولا تزال كذلك .

استعمال الحزف

هناك عامل مادي له تأثير فعال منذ اقدم العهود ، تساعد على استمراره ظروف مختلفة حتى ولو لم يعد له من سبب حقيقي .

وتخلو بلاد ما بين النهرين السفلى من الحجارة ، وغاباتها قليلة جداً، لذا غدا لزاماً على الانسان الذي اراد تشييد بناء ضخم ان يعمد الى الحزف، ويصنع منه خاصة لبناً يجففها في الشمس ويكدسها اكداساً افقية تلتحم بعضها الى بعض بواسطة رقع من القصب او القش او الزفت . ولم يستعملوا اللبنة المشوية الا بصورة استثنائية في الامكنة المعرضة الى ميـــاه المطر او الانهر ، وكان يلزم لصنعها مواد محرقة . ومن الاكيد بان بلاد الاشوريين كانت اغنى بكثير بالمواد الصلبة من سهول الجنوب الرسوبية، ولكن غدت حضارتها ، بواسطة بابل ، وريثة الحضـــارة السومرية ، لذا احتفظت بتقاليد نشأت في مكان آخر وتحكمت فيها عناصر طبيعية اخرى . وقد عملت الفكرة الدينية على تقوية هذا الاستمرار اذ ساد الاعتقاد بان كل حكمة ، املاها الوحي ، تحدرت من السومريين .

وهناك اعتبار آخر ايضاً : سرعة الاعمال وسهولتها . وقد طبع كل ملك سني حكمه بطابع اعمال شخصية وسعى والحالة هذه الى تخليد اسمه فشيد او اصلح مباني تشهد على تقواه وقوته . وهكذا غدا فن النقش عند الاشوريين اكثر ابتكاراً اذ تصرف بصورة اوسع مدى بهذه الحجارة التي اجبر السومريون والاكاديون على جلبها من مكان بعيد وبتكاليف مرتفعة عندما ابوا ان يكتفوا بالحصى الكبيرة التي كانت تحملها الانهر . ولكن لم يحدث الفن الاشوري في مجال هندسة البناء اي تجدد اذ اكتفى بما هو سريع الزوال شرط ان يكون عظيماً: لذا لم يستعمل المهندسون الحجر الا لوضع الاسس . وقد شيد الملوك العظماء على اقل تقدير قصرهم وهياكل عدة ، هـــذا ان لم نقل مدينتهم الخاصة كما فعل سرجون الثاني في دور — شرّوكين .

النتائج

غدا لاستعمال اللبنة القليلة الصلابة نتائج تقنية اصبحت مع الزمن تقاليد محترمة حتى عندما زالت الضرورة الاولى .

والنتيجة الاولى الاكثر ضرورة هي ايجاد كوم من التراب الاصطناعية وذلك لحماية اسس المباني العظيمة من خطر الفيضانات. وكان على سطحها المنحني، والذي يغطيه ان دعت الحاجة الزفت او الآجر المشوي، ان يوجه الماء نحو بواليع اعدت في هيكل هذه الكوم. ولاعطاء فكرة عن ضخامة هذه المباني التي شيدت يكفي القول إن سطح قصر سرجون في خرساباد الذي يغطي مساحـة تبلغ نحو ١٠ هكتارات قد ارتفع اكثر من ١٥ متراً ويساوي تراباً منقولا يبلغ حجمه نحو مليون ونصف من الامتار المكعبة .

ولجعل الجدران اكثر صلابة غدا لزاماً ان تبنى سميكة جداً . وهي تضيق كلما اتجـه المرء صعداً من الاساس الى القمة . وانعدمت النوافذ تقريباً ، الا — لربما — عنـــد السقف اذ ارادوا تقليل، جهد المستطاع، نقاط الضعف في هذه المباني الضخمة. ووجب على الابواب، وكان بالامكان جعلها اكثر ارتفاعاً دون كبير ضرر ، ان تؤمن الحاجة الى الهواء والنور . وكان لزاماً ايضاً ان تنفتح على الهواء الطلق ، لذا وجب الاكثار من العرصات الكبيرة والصغيرة داخل البناء .

ومن هنا يتأتى الشعور بالضخامة الهائلة التي تظهرها المباني الكبيرة . واذ امتدت على مسافة طويلة — وكان من الخطر ان تتوالى الطباق ولم يجرؤ احد حقاً على هـذه المغامرة ، حتى في الزّقورات — ظهرت كل من هذه المباني ، ان اعتبرنا الخط المستقيم ، ككومة ضخمة شبيهة الى حد ما بجرم متواز ومستطيل السطح ، حفرت فيها بصورة واضحة ، من القمة الى الاسفل ، حفرٌ على شيء كثير او قليل من الشكل المكعب .

وهذا ما يفسر لنا الجدران التي قامت على وتيرة واحدة . لذا سعوا باكراً جداً لان يصلحوا الحال وذلك بتبني نظام الحائط المربع الزوايا او نصف الدائري الذي يتخذ اذ ذاك شكل ركن مربع او عمود منتقص . وعمدوا ايضاً الى تغطية المساحات العمودية او المسطحة بمربعات الفسيفساء او الآجر المشوي المطلي بالمينا بشكل عادي او نافر ؛ ولجأوا ايضاً الى تغطيتها بمادة تشبه الرخام ينقشون عليها الرسوم ، او اخيراً ، وفي بلاد الاشوريين ، باسنادهم اليها نقوشاً بارزة من الحجر المنحوت. واكسبت هذه الاساليب تشابكاً في الالوان على تلك اللوحة السمراء التي لا مفر منها . وخيّم داخل القاعات ظلام خفيف اذ لم يتسرب اليها النور الا قليلاً ؛ والحق يقال إن هذه العتمة اللطيفة التي تدعمها صفاقة الحيطان كانت تحمي من الحر الذي يشتد كثيراً جداً في ذاك الاقليم .

السقف ودعمه

أثار السقف مشاكل لم يوفقوا في ايجاد حل لها . ولم يكن لشكله الأفقي كبير أهمية : وحالت كمية من الزفت دون تسرب الماء منه في بلاد خف مطرها . ولكن لم يكن للقوم خشب . واستعملوا للمباني الصغيرة ، كالبيوت مثلاً ، نظام القبب . وعرفوا ايضاً نظام العقد واستعملوه للقنوات والجسور ولكن لم يعثروا الا قليلاً على آثار من عقود السقف في انقاض المباني العظيمة . لذا احبوا كثيراً استعمال قطع كبيرة من الاخشاب حصلوا عليها من جذوع الاشجار . ولا شك في انهم اتوا بها ، إن دعت الظروف ، من الغابات البعيدة ، خاصة من سورية مستعينين بالفرات : وتقضي نقوش عدة على كل شك بخصوص شهرة أرز لبنان . ولكن لزمهم والحالة هذه عدد كبير . واكتفوا غالباً بأخشاب قصيرة ، مما اجبرهم من ثم على تقليل عرضها .

واستعمال الآجر لاقامة العمد التي تحمل السقف امر في غاية الدقة . ولعدم توفر اساليب فنية للحصول على الآجر المشوي استحال على هذه العمد ان تصبح متينة ان لم يعمدوا الى زيادة قطرها ، وهذا ما كان يعيق الرؤية في القاعة .

لذا لا نجد للضخامة الخارجية مثيلاً في الداخل ، في مقاييس القاعات او العرصات ؛ وغدا من الصعب جعلها فخمة الا في مجالي الطول والعلو ، وذلك ببذل جهود جبارة استثنائية . ولكن اوحت قصور الآلهة والملوك التي تهيمن على المدن فكرة اجمالية بوجود سطوة تفوق قدرة الاشخاص العاديين .

الهيكل

ان الهيكل هو بيت الآلهة ، أعني بالوقت ذاته ، القصر والحصن ، وذلك بعد ان زالت الازمنة الدولية الوضيعة . وتشاهد على ركب أحد تمثالي الملك « غوديا المهندس » لوحة تحمل رسم الهيكل المنوي تشييده : انه رسم حصن منيع ، اذ يحيط بالهيكل الكلاسيكي سور له ابراج لحماية الآلهة وخدامها وكهنتها وكنوزها ضد أي عدو .

ويفرض دور الهيكل الاقتصادي ، وقد رأينا اعلاه اهميته ، وجود منازل ومكاتب للاشخاص ، كما يحتم وجود اصطبلات واهراء ومخازن وكنوز . وفي كل هيكل كثر عدد بيوت العبادة بالمعنى الحصري اذ زيدت مع الزمن دور خصصت لآلهة اخرى استضافتها الإلهة الوحيدة او الإلهتان الرئيسيتان . وهذا ما يدعو دوماً لتغيير هندسة الهيكل . ومع هذا لكل إله رئيسي نجد دوماً تقريباً باحة مخصصة للاحتفالات الدينية تشرف على قاعة نجد في اقصاها الغرفة الالهية السرية بحصر المعنى حيث لا يدخل الا الكهنة والملوك وحيث يرتفع تمثال الإلهة .

البرج ذو الطبقات

تشتمل كل الهياكل الكبرى ايضاً ، في احدى روايا سورها او على مقربة منها ، على بناء خصوصي يعبر احسن تعبير عن حضارة بلاد ما بين النهرين: الزقورات (*Ziqqourat*) وقد درج المعاصرون على تسميته « البرج ذو الطبقات » . ومع الاختلافات المحلية المتعددة التي طرأت على هذا المبنى ، نراه دوماً « عالياً » – وهذا معنى كلمة الزقورات الاصلي – تقل مساحته ذهاباً من الاساس الى القمة .

وهندسة هذا البناء معروفة : سطوح تعلو بعضها بعضاً تضيق مساحتها باستمرار كلما ارتفعت ، تصلها مع بعضها البعض سلالم او درابزونات . وان ارادوا اعداد قاعات فيها فلا يتوفر لهم ذلك ، في كل سطح ، الا على الجوانب ، ويقيمون لها ابواباً تطل على الاعمدة الجانبية التي تتوسط الاجزاء ؛ اذ وجب الامتناع عن اجراء اي ثغرة في جسم البناء الاساسي وذلك لتأمين متانته .

وكان عدد السطوح عرضة للتبديل: فهو سبعة، حسب احد النصوص، لـ « اي – تيمين – أن كي *E - temen - an - ki* » ، اي « بيت اساس السماء والارض » ، الذي ارتفع بالقرب من الـ « اي – ساغ – ايل *E - sag - il* »، اعني «البيت ذو الرأس العالي»، او هيكل مردوك في بابل؛ بينما اوصل هيرودوتس هذا العدد الى ثمانية ، وقد اعتبر دون شك الجزء الذي هو بمثابة الاساس ، ونجد ان هذا الرقم هو سبعة في مواضع اخرى ، بينما لا يبلغ الا الاربعة او الخمسة على بعض النقوش . واختلفت ايضاً المقاييس : فهي تزيد قليلاً عن التسعين متراً طولا وعرضاً وارتفاعاً الـ « اي – تيمين – أن – كي » ، بينما لا تزيد الا القليل عن ١٦٠٠ م لبرج خرساباد التي لا تزال باقية سطوحه الثلاث السفلى؛ وهي لا تتعدى ٦٤ م و ٤٣ م للطبقة الاولى ، وهي الوحيدة التي يسهل قياسها ، من برج اور الذي يرتقي الى الالف الثالث .

وحقيقة تفسير تشييد هذا النوع من المباني لم تفرض بعد ، ويحول عدد السطوح الذي يتبدل هنا وهناك دون اعتباره متصلاً بالكواكب السبع السيارة التي عرفها البابليون ، وخصصوا لكل منها طبقة طلوا كلاً منها بلون مختلف. وذكر هيرودوتس بانه كان يوجد في القمة « بيت للعبادة وضع فيه سرير كبير وعليه اغطية ، وبجانبه طاولة من الذهب » . وقد قضت فيه ليلتها وحيدة امرأة من المدينة « اختارها الاله من بين جميع النساء ». ويزعم سترابون بان سكان بابل اعتبروا الاي – تيمين – أن – كي قبراً لمردوك ، بينما اورد ديودور الصقلي بانهم استعملوا الزقورات كمرصد . اما بعض المعاصرين فرأوا فيه « مكاناً عالياً اصطناعياً » . ومن الجائز اختيار اي من هذه الحلول ، ان لم يكن من الواجب دمجها معاً .

ولكن بانتفاء التفسير الاكيد فلا يغربن عن البال الجهد المادي الذي بذل والاثر الذي تركه مثل هذا البناء طوال العصور القديمة . ولم تعرف بلاد بابل ، وقد خضعت للبرثيين قبل عهد اوغسطس بقرن ، تدفق السياح اليونان والرومان الذي اشتهرت به مصر ، لذا لم تعم اساطير هذه الانقاض العالم القديم كما انتشرت الاساطير التي اوحدتها الاهرام الكبرى او تماثيل ممنون الضخمة . ولكن تظهر الدهشة في تعابير هيرودوتس الذي زار الاماكن ، كما تظهر في كتابات سترابون وديودور الصقلي اللذين لم يأتيا اليها . وتحدثنا التوراة عن برج بابل الذي شيده حبروت بني آدم الذين توخوا « تخليد اسمهم » والحؤول دون تشتتهم . ومنذ القرن الثاني عشر من عصرنا ارادوا ان يتعرفوا الى هذا البرج من خلال خرائب « بيت قواد السماء والارض السبعة » الذي كرسوه للاله نابو في بورسيبا : اذ ان كمية التراب المنهار الذي يبلغ ارتفاعها ٤٧ م هي اليوم دون شك اعظم آثار بلاد الرافدين .

الملوك والمباني الدينية

ساعد الملوك بيدهم لتشييد الهياكل والابراج ذوات الطبقات . وقد وجدوا نصاً مسمارياً يرتقي الى القرن الثالث ق.م . يعزو هذا القول الى ملك يوناني: « كنت اصنع ، بيدي الطاهرة ، ومن زيت في غاية النقاوة ، الآجر » لترميم هياكل بابل . وابدى اقدم ملوك بلاد ما بين النهرين تقوى مماثلة ، فاشتغلوا بالدوارة والمسطرة والحبل والمنكاش والمَرّ ، واوعزوا الى رسمهم او نقشهم وهم يحملون على رأسهم قفة مملوءة آجراً . وكانوا يضعون في اساسات الهيكل ودائع ثمينة ويرفقونها بوثيقة تثبت تكريس مكان التشييد وتذكّر الاجيال القادمة بعزمهم الخيّر. وعند ترميم الهيكل كان واجب الملك الذي يرأس هذا العمل ان يطلي بالزيت وثائق اسلافه قبل ان يزيد عليها وثيقته الخاصة التي تدعو خلفاءه الى تبني هذه الاعمال التقوية وذلك بتهديدهم باشد اللعنات ، اذ غدا لزاماً ان يستدر عطف الآلهة على الملك الذي هو وسيطهم امام شعبه .

وكان من ثم طبيعياً ان تحوي اسوار القصر الملكي نفسها بيوتاً للعبادة ان لم يكن هياكل ، مع نصوص ابتهالات وصور ارواح حارسة ورسوماً او نقوشاً تمثل طقوس العبادة او تقدمة

الذبائح . ولقد وجدوا شيئاً من هذا في اقدم القصور التي سمحت اعمال التنقيب بدراستهـــا ، كقصور اشنونا في بـلاد أكـّاد التي ترتقي الى اواخر الالف الثالث ، او قصر ماري على الفرات الوسط والذي دمره حمورابي . ونجد في الفسحة حيث ارتفع قصر سرجون الثاني، الذي شُيّد في اواخر القرن الثامن ، ستة هياكل مختلفة الاحجام ، بالقرب مـن الزقورات ؛ وقد اعتقد المنقبون في القرن السابق بان هذه المباني هي حرم الملك . وعلاوة على ذلك نجد بالجوار المباشر، ولكن خارج هذه الفسحة ، هيكلاً آخر الحقوه بقصر آخر . فكان الملك يعيش والحالة هـذه بمعاشرة الآلهة المباشرة .

القصر

ان احدث اكتشافات الدور الملكية في بلاد الرافـــدين ، اكتشاف ماري ، ليس اقلها اهمية . فهناك مساحة تبلغ هكتارين ونصفاً احصوا فيها ٢٦٠ غرفة، منها قاعات الحفلات التي تزينها الرسوم ، وغرف السكنى المجهزة تجهيز رفاهية ، ومكتبات المحفوظات ومكاتب العمل ، ومدرسة للكتبة، والمحالب ، والمجابن ، والمخازن والمصانع . ولكن لم يغتصب دون شك قصر سرجون الثاني في خرساباد الشهرة التي لا يزال يتمتع بها منذ قرن تقريباً . وبعد ان هُجر لم يطرأ عليه اي دمار الا التخريب الذي انزلته به العوامل الطبيعية ، لذا سهل هنا عمل علماء الآثار اكثر من اي مكان آخر : وهو اليوم خير شاهـــد على العظمة والفخامة ، ولم يكن له في هذا المجال ، المركز الاول .

وشمخ هذا القصر على ارض مرتفعة امتدت على جانبي سور المدينـــة في الشمال الغربي . وبسبب نتوئه نحو الخارج غدا كأنه حصن دفاعي حصين . واتصلت الارض من جهة المدينـــة بمجموعة من المباني الاخرى تحدها اسوار محصنة اشد اتساعاً غدت كأنها قلعة مستقلة .

واذا اتجه المرء من المدينة الى القصر فانه ، بعد ان يجتاز القلعة ، يصل الى الرصيف بواسطة درج عريض يؤدي الى باب القصر الكبير الذي تحيط به الابراج . وخلف الباب تمتـــد باحة مكعبة الشكل تقريباً ، يبلغ طول جانبها مئة متر ؛ وتعد هذه الباحـة مركزاً للواحق القصر وحياته المادية ، يجتمع فيها الجمهور او أقله الحرس والخدم؛ ومن حواليها تظهر ابواب مستودعات المؤن المختلفة الانواع ، والاصطبلات والمطابخ . وعلى بعض المسافة ومن الجهة التي هي اكثر بعداً عن المدينة، تتلاقى حول باحة كبيرة قائمة الزوايا المباني المعدة للسكن والادارة والحفلات: قاعة العرش خاصة ، حيث وجدوا قسمه السفلي ، وكان لها ثلاثة ابواب يفصل بينها عمودان هائلان على احدى جوانب الباحة الطويلة ، وبلغ طول هذه الغرفة نحو ٥٠ متراً، وعرضها ١٢ م فقط . وهكذا نجد اكثر من مئتي غرفة تشرف بغية الهواء والنور على اكثر من عشرين باحة، تارة كبيرة وطوراً ضيقة جداً .

الجنـــائن

مع الاهتمام بفن التزيين ، ويجب ان نعود الى هذا الموضوع ، لا يغربن عن البـــال سعيهم لتأمين الرفاهية . فقد وجدت في قصر ماري القديم كما في قصر تل برسيب

الاشوري الريفي (من القرن التاسع الى القرن السابع) غرف الحمام ، مجهزة احسن تجهيز ، وفيها المغاطس واكوار التسخين ، ولم تنقص المياه اذن وقد جلبت من محل قريب بواسطة القنوات او ، كما الحال في نينوى ، بواسطة قنوات تعلو القناطر .

لا بل توفرت المياه حتى غدا بالاستطاعة خلق جنائن غرست فيها الاشجار . وغدت هذه

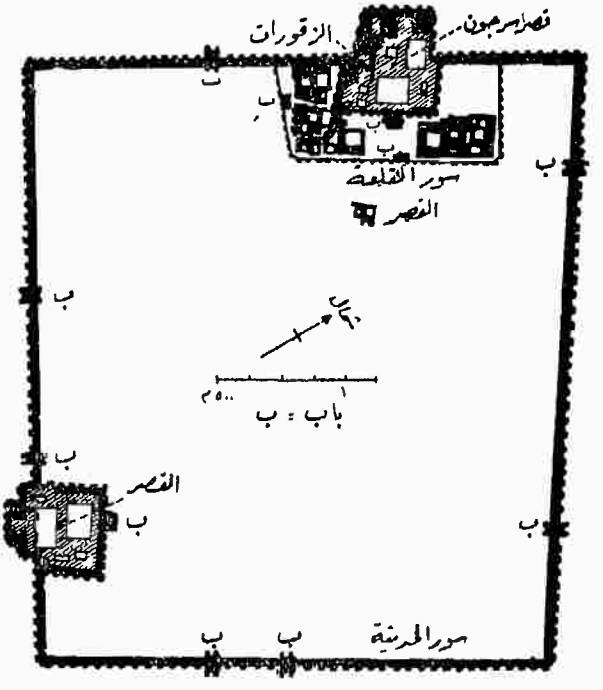

الشكل ١٣

دور شروكين (جدار سرجون) حرسا،اد اليوم
السور والمباني الرئيسية للمدينة التي شيدها سرجون الثاني حوالي اواخر
القرن الثامن ق.م.

الجنائن هدف احلام سكان هذه المناطق التي تقرب السباسب ان لم يكن الصحارى ، وحيث تشتد فيها الحرارة. وكان يلزمهم حدائق بجوار الهيا كل ليُسكنوا الآلهة في« بيت يفرح القلب »؛ وقد ظن البعض بأنهم غرسوا الاشجار على طبقات الزقورات ؛ وعلى كل حال كان لمعابد كثيرة شيدت في المدن بيوت ريفية ألحقت بها ينقلون اليها الاله في بعض المواسم . وغدا ضرورياً ايضاً ايجاد بساتين على اقرب ما يكون من القصور لكي يشعر الملك بطراوة نضرة . وظن علماء التنقيب بأنهم عثروا في بابل على اسس « الجنائن المعلقة » وذلك في مجموعة من الغرف الضيقة جداً . واعتبرت التقاليد اليونانية هذه « الجنائن المعلقة » احدى عجائب الدنيا السبع !

ويقال إن الملك نبوخذنصر اعدها ارضاء لزوجه التي اعتادت على الجنائن الملكية « الفراديس » في بلاد ميداي حيث كانت قد ترعرعت .

الاوصاف العمومية لفن النقش

ان فن النقش ، ولو ادغموه غالباً في هندسة البناء ، بقي لهـا الخادم والمساعد الذي يقدم عوامل تزيين او يزيدها غنى وجمالا . وفي هذا المجال ازداد دوره اهمية ، خاصة في القصور الاشورية . وحتى في هذه الحالة لم يكن للزخرفة فقط وقد – والتقدير هذا في غاية الدقة – لم يقصد هذا الهدف . وعلى كل قصدوا من اللجوء الى النقش ، اول الامر ، ارضاء عوامل مختلفة ، اذ لم تظهر قط للعيـان بعض النقوش وقد دفنوها في الارض . لذا لم يكن الجمال المحرك لتلك النزعة الاولى ، بل وجب ايجـاد السبب في الافكار الدينية او ما شابهها .

وأرادوا من جراء نقش شخص مـا ان يؤمنوا ، اطول مدة ممكنة ، حضوره حيثما وضع – ولا شك في مكان مقدس – حتى تحرسه الآلهة . كما انهم توخوا من نقش مشهد الذبيحـة والعبادة والتقدمة ، والمعركة المظفرة او القنص الموفق احيـاء ذكرى هذه الافعال او تأمين استمرار هذه الاعمال التقوية والمجيدة ، او بالاحرى استمرار العطف الالهي الذي كان نتيجة الاعمال الاولى وسبب الاخرى . وهكذا فان الانتاج الفني ، وقد لازمته الأدعية والصلوات ، لا بـل غدا هو دعاء وصلاة ، حاذى حدود السحر وتعداها غالباً .

ولم تختلف هـذه الفكرة في جوهرها عن زميلتها المصرية . ولكن ضيّق مدى تطبيقهـا التفاوت في الاعتقاد بحياة في العالم الآخر . ولم يتطلب القبر تماثيل تقوم مقام المومياء ، كما لم يقدم جدرانه ليصوروا عليهـا رسوماً تحيي للميت المؤله افراح الحياة الارضية والثمار الحتمية للعمل الانساني . ولكن بقيت التماثيل والانصاب التي كرسوها للآلهـة في الهياكل ؛ واستمرت ايضاً النقوش التي غدا وجودهـا في القصور سبب نعم لساكنيها ، ولم تنقطع الادعية وان خف عددها .

مقوماتـه

لا يعجبن أحـد ان خضع فن النقش هذا ، خاصة في عهـده القديم ، لشروط معينة .

ولم يهتم المتفنن لاظهار الجسم الانساني في تناسقه الطبيعي : وهو لم يمثل الامرأة الا نادراً ، ولم يتبع مبدأ العري الا نادراً جداً جداً . وبالعكس فقد سلطوا انتباههم على الثياب التي سعوا جهدهم لاظهارها بدقة : ففي اول العهد تنورة من شقف صوفية ، استلهموا شكلها دون شك من جلد الخروف وجزته ؛ ثم جبـة طويلة مشدودة ومطرزة . وقد استرسلت هذه الاثواب حتى الارض ، ولكن اعدت فيهـا ثغرة للرجلين . اما الذراعان فكانتا مطويتين عادة دون ان تتحركا وقد لصقتا بالجسم . وهكذا صعب بتر الاعضاء اذ اتحدت اتحاداً كلياً بكتلة التمثال .

ونبضت الحياة في الرأس بشكل اتضح اكثر فأكثر باستعمالهم حواجب اصطناعية من الزفت وعيوناً من الحجر الملون ، والصدف الابيض والمينا . ولكن لم يبتسم الوجه الا نادراً جداً ، ورافقت غالباً عدم تأثره مسحة من السويداء ، ان لم يكن من الحزن : فديانة بلاد ما بين النهرين لا تسهل كثيراً أسباب السرور . وغدا الرأس عند السومريين ، دون جدال ، الجزء الرئيسي من التمثال ، وقد جعلوه نسبياً اقوى واكثر ارتفاعاً من سائر اجزاء الجسم . وهل غدا التمثال الصورة الحية لشخص معين ؟ ان التأكيد في هذا المجال يتنافى وملاحظات علماء العرق الذين اكتشفوا فوارق كبيرة بين الهياكل العظمية والتماثيل : فحجمجمة هذه الاخيرة تتساوى طولا وعرضاً ، بينما يفوق طول جمجمة الهياكل عرضها . لذا وجب الرضوخ الى بعض الحقائق المتفق عليها وآخرها — وهي التي تثير اشد استغراب — يؤكد بأن هناك أقلية عرقية قد احتفظت بالسيادة السياسية .

وكان على النقش البارز ان يتجانس مع فن الرؤية : أعني الاسلوب الذي اصطلحوا عليه لاظهار هذا الفن : وهكذا سمح المتفنن لنفسه ان يظهر الاشياء مرتبة فوق بعضها البعض ، ومراراً على شكل طبقات تفصل بينها خطوط ، مع انه كان عليه ان يبررها على شكل يوحي بفكرة العمق . وعندما نقش المتفنن الانسان خضع لمبادىء تقرب من مبادىء النقش المصري . ولم ير الوجه بصورة مقابلة الا نادراً جداً وللاشخاص الالهية فقط . ولكن مع انهم ابرزوا الوجه بشكل موارب فانهم اظهروا مع هذا العين واللحية بصورة مقابلة ، وقد لجأوا ايضاً الى هذه الوسيلة فيما يختص بالكتفين وأعالي صدر الانسان . وعندما طووا هذا الصدر ، وكان ذلك نادراً جداً ، وبشكل غير كاف ، توخّوا الابقاء على إظهار الدراعين بشكل موارب . وقد لجأوا دوماً ايضاً الى هذا المبدإ لإظهار الاعضاء السفلى ابتداء من الركب ، وذلك بدون اي استثناء اذ ساروا على هذه النظرية حتى عندما نقشوا البطل غيلغميش بشكل مقابل .

شروطه التقنية

ان فن النقش في بلاد ما بين النهرين ، خلافاً لما حصل في مصر ، لا يعتمد على اشغال عظيمة الحجم : وهو في هذا المجال على طرفي نقيض من فن الهندسة . وتُعَد هذه الاشغال ، ان وجدت ، استثنائية وحديثة العهد نسبياً ، ولا يتعدى أي منها العصر الاشوري العظيم : وخير مثال كلاسيكي في هذا المضمار هو الثيران الهائلة المجنحة ذات الوجه البشري في خرساباد التي تبرز لنا عضلاتها القوية على جوانب قطع حجرية يفوق علوها اربعة امتار ، ووزنها ثلاثين طناً . وبقيت المقاييس قبل هذه الفترة صغيرة نسبياً : واذ وجدوا في سلسلة تماثيل غوديا الكثيرة العدد انموذجاً يظهر فيه جالساً وقد زاد ارتفاعه ١٫٥٨م عن طول قامة الانسان العادية وصفوا هذا التمثال « التمثال الضخم » . وتفسير هذا النقص ، الذي يخف في بلاد الاشوريين ، هو عدم وجود مواد صلبة في بلاد ما بين النهرين السفلى ؛ وقد تأصلت هنا عادات تبناها الغير مع انه كان اكثر غنى في المواد الاولية . ويجوز لنا ان نضيف الى هذا

التفسير المادي تواضع الرجال ، والملوك ايضاً ، الذين لم يعدوا انفسهم آلهة ، امـام عظمة القوى الالهية الساحقة . ولكن عدم هذا الشعور عندما أرادوا تمثيل إلهة ما . وفعلاً تحمل الثيران المجنحة ، وهي ارواح حماية ، التاج ذا القرون ، رمز العظمة الالهية . ومع هذا فان قـلة تحقيق مثل هذه الاعمال الضخمة تفيد على وجود مثل هذه الاعتبارات واحترامها .

ولا تجد كل هذه الاعتبارات لنفسها تحليلاً منطقياً ، كما تحقق لنـا ذلك . ولكن مقدرة المتفنن التقنية هي فوق كل شبهة . انها دون شك لا تظهر دوماً على اكمل وجـه . ولكن باكراً جداً ينتصر النقّاش ، أقله في بعض الأماكن ، على اصلب مادة ، وهـو يحقق بصبر وطول اناة ما يريد وما ينتظر منه . انه يرى مـا يجب عليه ان يراه ويعبر عنـه كما يريد ان يراه الغير ، ويهيمن دوماً عقله على يده عندما يعبر عن معطيات حواسه ومخيلته .

فن صنع التماثيل

يكتسب فن صنع التماثيل الأهمية الكبرى في العهود القديمة . وقـد عرفت الشهرة ، في هذا المجال مصنوعات قديمـة عدة : وهي لم تكتسبها لكمالها الفني فحسب ، بل غالباً لغنى الأدلة التي تقدمها لنا عن معتقدات سكان سومر وأكّاد القديمة .

ولا نجد الا عدداً قليلاً جداً نسبياً لتماثيل الآلهة ذكوراً كان أم اناثاً . ومن اشهرها تمثال عثر عليه في قصر ماري وهو يظهر لنا إلهة مرتدية ثوباً مزركشاً وتضع على هامهـا تاجاً مستديراً يحيط به زوجا قرون ، وتمسك على بطنها بيديها وعاء ينسكب الماء من ثقبه — والتمثـال فارغ الجوف — على الثوب : انها « إلهة الوعاء المتدفق » ، رمز الرفاهيـة والخصب الذي نجده مراراً بين يدي تماثيل الانسان .

ونجد ايضاً بعض التماثيل للأرواح الحارسة ، لا بل تماثيل للثور ذي الرأس البشري — وهو يحثو بهدوء — يكلل هامه تاج ذو قرون ، وتعبر نظراته عن الرصانة ، ان لم يكن الحزن . ومع تماثيل هذه الارواح ، نجد تماثيل كثيرة اخرى تعبر عن حيوانات مختلفة كالأكباش والأبقـار الوحشيه والأسود التي ترمز الى آلهة او تستدعي عطف هذه الآلهة على القطيع . ولا تخـلو هذه التماثيل من ثقوب اعدت لتصبح مستقراً لقطع من صدف ، يتم معها ، ان هذبت ، الشبه التام مع رقطة جلد الحيوانات .

ونجد اخيراً وبصورة خاصة تماثيل كثيرة جداً ، صغيرة أو كبيرة ، للرجال . أمـا تماثيل النساء فهي أقل منها عدداً . وقد طويت الذراعان بصورة تسمح لليدين بأن تلتقيـا على الصدر ، أو لاحداهما ان تستقر امـام الفم : وهذه هي علامات الصلاة والعبادة اننـا دون شك ازاء ملوك او عظماء ارادوا ان يؤمنوا حضورهم الى الابد في الهياكل ويظهروا للإلهة تقواهم ، وخضوعهم لاوامرها . وكيلا يصبح اسمهم عرضة للنسيان ، فانهم غالباً مـا يحفرونه على احد اجزاء التمثال الملسة .

قيم ماري ، عوديا

لنكتف بسرد اشهر التماثيل . اولا « قيّم » قصر ماري، ابيل – إبل . وهو منقوش في الرخام الابيض ، حجر ابيض لبن ، ونجا باعجوبة من كل خراب ودمار : ولكن مع هذا فقد فقدت رجلاه . ولا يرتدي الشخص ، وهو جالس على مقعد سلاّل ولا يرتدي الا قميصاً من صوف . وتلتقي يداه امام وسطه العاري . ولم يمس رأسه الذي يحوي كل العناصر التي تفرضها العيون والحواجب والاهداب ، تمدده لحية حريرية بينما حلق شعر الجمجمة والشارب . وتسدي هاتان العينان على الوجه حياة زاخرة ، تساعدهما على ذلك شفتان يعلوهما شبه ابتسامة

ولكن علينا ان نتوقف اكثر امام مجموعة تماثيل الملك غوديا العجيبة، التي عثر عليها في تلّو ، حيث ارتفعت لاغاش القديمة . ونعرف اكثر من ثلاثين تمثالاً من هذه المجموعة ، منها ما هو مكتمل الاجزاء ومنها ما هو مكسور . ويوجد منها نحو اثني عشر تمثالاً في متحف اللوفر وقد عثر عليها منقبون فرنسيون . ولكن لا يحوي هذا المتحف إلا ثلاثة رؤوس . وقد نقشت كل هذه التماثيل في حجر رملب جداً ، وفي غاية الجمال يميل لونه الاخضر نحو الاسوداد . ومع هذا يدل نقشها على مهارة لا غبار عليها . وتتراوح احجامها من ثلاثين سنتيمتراً حتى تبلغ مع التمثال «الضخم»، الذي يظهر الملك جالساً ، نحو ١٫٥٨ م . ويبدو فيها الملك في مختلف مراحل سنيه ، فتارة في عهد صباه وطوراً في مكتمل العمر . ولكن يكفي ان نلاحظ بانهم يطلقون على احد هذه التماثيل صفة « صغير الكتفين » وعلى انموذج آخر منها « عريض الكتفين » لنشك ولو قليلاً في حقيقة هذه الصور . ولكننا نجد في كل حلقات هذه المجموعة نفس العينين المفتوحتين ، والشفتين المنقوشتين نقشاً دقيقاً ، والذقن الطويلة المعكوفة .. وتكشف لنا هذه الاوصاف عن مزايا الشخص النفسانية : فهو كان دون شك ذا ارادة وعزم . ولكن مما يسترعي الانتباه هو الصفة الكهنوتية التي تظهر مراراً كثيرة على ثيابه وجلسته . ويضم غوديا دوماً يديه ، ان ظهر واقفاً او جالساً ، حاسر الرأس او معتمراً نوعاً من العمامة . ويظهر دوماً وقد انحسرت عن كتفه وذراعه من الجهة اليمنى قطعة قماش كبيرة تمر من تحت ابطه ويغطي جزء منها كتفه اليسرى وذراعه حتى المعصم . ونجد في نفس الامكنة الثنايا ذاتها وان قل عددها ولطف طيّها . ولكن في كل النماذج وتحت قطعة القماش السميكة ، تبرز لنا الحياة في الجسم ، اقله في الجزء الاعلى ؛ ولا ينقص قط اي مثال شيء من الاناقة والكياسة . كما تظهر لنا البساطة بصورة مؤثرة ، مهما تجسمت وخلافاً لكل مفهوم ، عظمة الشخص الذي يستجدي وينتظر وحي الآلهة ليقوم بعمل ما وسط بني البشر .

النقش البارز *Bas - relief*

لم يتوصل قط فن نقش التماثيل في بلاد ما بين النهرين الى درجة كمال كهذه . انه لم ينقرض ولكنه مع هذا ترك المركز الاول في فن النقش الى ما دعوه النقش البارز .

غدا لفن النقش البارز عند الملوك الاشوريين حظوة لا مثيل لها ، وقد تعاطاه الجمهور باكراً

جـــداً على لوائح مصغرة ،او حصى (الكودورّوس *Koudourrous*) ، او اوان او نصب . وكانت بلادهم غنية بالحجارة ، فاستعملوها بكثرة لتغطية جوانب الآجر ، خاصـــة جوانب قصورهم . وتفوق المساحة المنقوشة على هذا المضمار في قصر سرحون الثاني في خرساباد ستـة آلاف متر مربع .

ووجدت هذه الآثار المنقوشة على مقربة من الابواب . وكانت تمثـل هناك خاصة الارواح الخيّرة التي يحول وجودهـا دون دخول الارواح الشريرة . وغـدا لوجود نقوش الابطال والحيوانات الحقيقية او الخيالية مغزى رمزي . ونُقش هناك اغلب الاحيان نوعان من النقوش . الاول البطل غيلغميش الذي ينتصر على الاسد ويشده الى ذراعه الايسر ، بينما تحمل يده اليمنى سلاحاً معكوفاً يعد اصلاً للحسام؛والثاني الثور المجنح ذو الرأس البشري الذي ينتصب على ركائز الباب ، يدير نحو الزائر رأسه المهيب على ما به من وسائم بشاشة وامن .

ووجدت النقوش ايضاً في الداخل على جدران الاروقة والقاعات . وكانت اقل دقة اذ لولا ذلك لانعدمت رؤيتها لقـلة وسوء الاضاءة . وهي تمثـل ارواحاً مجنحة خياليـة برفقة الملك او وحدها ، ترش ماء التطهير بواسطة ثمرة الصنوبر الطقسية ، نباتات اخرى ، مستدعية والحالة هذه على البلاد بركات الحصب . ونقش ايضاً العبيد وهم يعدون الحفلات حيث سيظهر الملك بكل عظمة . وهناك ايضاً نقوش قنص تظهر الملك وهو يخرق بسهامه او حربته ، من على عجلته ، الاسد الشرس ، او يمسكه من لبدته ويغمد في بطنه الخنجر . وقـد يمثلون الملك ايضـاً وهو واقف على عربتـه يحارب في الصف الاول من جيوشه ، وهو على احسن هندام ، وقد جعـد شعر رأسه ولحيته بكل عناية . وكثرت مشاهد الحرب والمعامع والحصار والهجوم ، كما تعددت ايضاً مشاهـد التقتيل والموتى وجموع الاسرى والامم المسبيـة او دافعي الجزية الذين غلبـوا على امرهم .

ولطفت من حرمة التقاليد المقدسة حرية في الوحي التعبيري ،لا بل خففت حدة هذه الحقيقة الواقعية القاسية ،ان لم نقل ايضاً الواقع الطبيعي القوي . ولكن استمرت تلك التقاليد على شدتها عندما مثلوا الملك او حاشيته المباشرة ، او عربته واحصنته وخدامه . ولم يفرقوا قط شخص الملك عن اصول اللياقـة هذه التي استطاعوا ان يقللوا من اهميتها عندما نقشوا الجنود والاعـداء والمواطنين والذين قهروهم في الحروب .

وعبرت هذه النقوش الناتئة من ثم احسن تعبير عن التقارير المظفرة التي كان يقدمهـا الملوك للآلهة عن معاركهم : ولم يكن الاشوري ، حتى عند عرضه قساوته ، باي تحفظ . ولا تبلـغ هذه الاعمال من حيث الفن درجـة الكمال . ووجب الاسراع بالعمل لبث الحيـاة في انصاب شيدت بسرعة وذلك بواسطة هذه الرسوم . وقد استعملوا احجاراً لينـة ، كحجر الكلس والرخام الابيض . واشرف على ادارة الاعمال رجل فن ، ولكن انجزها نفر من العملة ،

ولوحظت اخطاء في التنفيذ. ولكن مع هذا استطاعت القريحة ان تكشف عن نفسها من خلال وضعة فنية : فيطلق الخيّال نداء مستعملا يده كبوق ، او في المحيم تعتني الوالدة بابنها او يحيي الصبي الجنود . وقد بلغ الكمال حداً فائقاً بعض المرار ايضاً، خاصة في درس واظهار الحيوانات . وفي هذا المجال يحوي المتحف البريطاني روائع راهية صادرة عن قصر اشوربانيبال في نينوى ، منها اللبوءة المجروحة وهي تجر مؤخرتها المثقلة بالسهام بينما ينفجر من شدقها صراخ الالم الشديد . ويشكل هذا الانموذج اروع واشهر وحدات هذه المجموعة التي لن تُنسى .

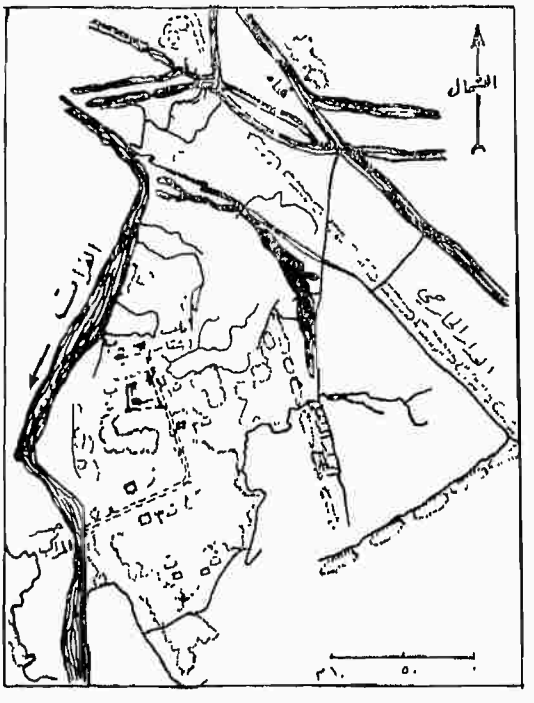

الشكل ١٤ - بابل عشية الفتح الفارسي (٥٣٩ ق.م.)
ب ، القصر ، القصر في الجهة الشمالية القصوى ، ويشمله الجدار الخارجي وهو قصر نبوخذنصر الصيفي ، ت ، الهيكل ؛ ت ٢ ، هيكل إشتار ؛ ت ٣ ، هيكل مردوك زقورات مردوك .

التزيين المرسوم والمرخرف باليدين

لم يكن النقش البارز إلا وسيلة للتزيين، من ضمن وسائل اخرى متعددة : إذ كان من المناسب ان لا تطغى الوتيرة الواحدة على مسافات كبيرة .

ولهذه الغاية لجأ القوم الى فن الرسم بالالوان . ولكن لم تحفظ نماذجه جيداً لسرعة زواله . واننا نجد فقط بعض آثار هذا الفن في اكبر وافخم العصور ، وقد اكتشفت لسوء الحظ في زمن لم تبلغ فيها اعمال التنقيب كمالا تقنياً . لذا وجب انتظار اعمال التنقيب في ماري ، عشية الحرب الكبرى ، ليسهل درس بعض النماذج المهمة ، ان لم يكن اقله جمعها . وتمثل تصاوير ماري ، وان عسر تفسير دقائقها ، مشاهد دينية كطقوس العبادة وتقدمة الذبائح . ولكن في قصر تل برسيب الاشوري الريفي استطاعوا ان يتحققوا من وجود رسوم تمثل رسوماً شبيهة برسوم الدور الملكية الكبرى : الصيد والقتال وصفوف الجنود .

وعلاوة على ذلك فقد طليت هذه الرسوم بالالوان ليزيدوا من دقة وجمال الاشكال ، كما انهم

استعملوا الالوان ليضفوا على الآجر الاسمر نوراً وبهجه . وهكذا نجد مساحات واسعة باللون الاصفر ، والازرق الحفيف ، والاحمر والابيض السح،علبها رسوم ورود وزهيرات وحيوانات لا تتجاوب غالباً ألوانها مع الالوان الحقيقية .

ولكي يجعلوا في الخارج الالوان اكثر ثبوتاً لجأوا الى مبدأ تربين الآجر بالمينا كما تقتضيه الاشكال المرسومة . والتحقيق في هذا المجال الذي يدعو الى الدهشة اكثر من سواه هو تزويق باب هيكل إشتار في بابل . ولا تزال انقاض هذا الباب الى يومنا وهي ترتفع الى ١٢ متراً . وقد لوّن كل شيء قديماً ، ولكن دون تشابك الالوان تشابكاً مفرطاً . وكانت الالوان خفيفة . ولوّن الجزء السفلي بالازرق عادة ، اما اعالي الحيطان ذات الشرافات ، فاعطيت ألواناً زاهية تخترقها خطوط من ورود وازهار . وعلى جوانب الابراج والعمد رسموا بصورة نافرة ثلاثة عشر صفاً منضدة تنضيداً تتشابك فيها الثيران والتنانين ذوات رأس الحية المقرّن ،يتعاقب فيها حيوان ابيض وحيوان اسود . وغدا الباب نفسه نقطة نهاية لطريق تصلح لمسيرة الاحتفالات ، حصرت بين اسوار منيعة ايضاً،تزينها اسود يظهر رسمها المطلي بالمينا نافراً على الحط العمودي. وقدروا انه قد رسم نحو ١٢٠ اسداً و ٥٧٥ تنيناً وثوراً على هذه اللوحات الدفاعية وذلك بشكل فني يدعو الى الغرابة وان هو لم يخل من بعض الدقة . وتشابكت في هذا المجال اساليب التلوين وتجاوز الحقيقة المغالى فيه واللجوء الى رموز الآلهة الحارسة مع الهندسة الدفاعية النفعية . واستقى دون شك فن تشييد القصور الفارسية من بابل فكرة الافاريز المطلية بالمينا.

فن النقش على الحجر

لا يجدر بالذكر ، من بين الفنون الثانوية ، إلا فن النقش على الحجر ، وذلك لكثرة ما تركه من آثار، تحوي المتاحف كالمجموعات الخاصة آلافاً منها ،إذ كان يملك كل شخص ، شرط ان يبلغ منزلة اجتماعية ما ، خاتماً يحل الرسم المنقوش عليه محلّ توقيع الفرد على المعاملات التي يكون فيها فريقاً او شاهداً . وغدا هذا الخاتم لحامله بمثابة تعويذة : اذ كما احتوى كل اسم علم على اسم آلهة ما ، غدا طبيعياً من ثم ان يمثل الخاتم روحاً حارسة ، او حيواناً رمزياً ، او اسطورة ميثولوجية ، او مشهداً تقوياً ، او طقساً يقضي على نفوذ الشياطين الشريرة . ورافقت كل هذا غالباً خطوط كتابة تشتد او تقل وضوحاً .

وحُفر الرسم بشكل مقعر حتى يظهر نافراً على الحزف حيث يطبع . ولهذا الغرض استعملوا حجراً منتخباً ، كاللازورد والعقيق وحجر الحية وحجر الدم الخ، فحصلوا على اختام مسطحة ومخروطية او نصف كروية ، او خاصة على اسطوانات تحمل ثقباً على خط محورها للرباط الذي يوثق به . ان درس مثل هذه الاشياء يحمل في طياته غالباً فائدة دينية كبرى . وكما يبدو وصلوا الى قمة الفن في هذا المجال حوالي اواخر الالف الثالث عندما اظهر المتفننون حذقاً خصباً في الابداع ، وحساً مرهفاً في الخلق المتزن ، ومهارة تقنية فائقة . ولكن اذ

كثر الطلب فيما بعد عمدوا الى صنع هذه الاشياء بصورة متواصلة ومتسلسلة ممـــا دعا الى العمل بسرعة فانتفت الجودة

ان درساً شاملاً لفن بلاد الرافدين يستدعي فقرات اخرى كثيرة للبحث في الآنيـــة ، والمعادن ، والثياب والاثاث الخ ؛ ولكن لن يظهر هذا البحث شيئاً جديداً اذ ان المصنوعات في هذه المجالات المختلفة لا تقدم لنا العظمة والجودة اللتين وجدناهما في النماذج التي اتينا لمامـــاً على ذكرها — هذا ان توقفنا عند النتائج الحالية للاكتشافات الاثرية التي تخضع لعوامـــل المصادفة وامكانية حفظ الاشياء .

الخـــاتـــمة

اننا دون شك ، ومهما كانت الاعتبارات ، امام حضارة زاهية من حيث مـــا حققته ومن حيث مدتها . وهي زاهية ايضاً لما اسهمت به في الحضارة الانسانية العامـــة وللتوجيهات التي وهبتها لمعتقدات واعمال بعض الحضارات القديمة .

انها تفتقر عادة الى عوامل الاغراء والجمال والطلاوة ، ولا نجد فيها الا مكاناً ضيقاً للسخرية والفرح . لا بل ان القساوة والكربة المتأصلتين فيها منذ القـدم لا تستميلان النفس ، كما لا تؤثر فيها الشراسة المقصودة التي يظهرها الاشوريون وكثيراً ما تلامس عظمتها فظاظة غير انسانية ، حتى غدت هذه الصفة من مقوماتها المستديمة .

ولكن لن ينكر احد على هذه الحضارة قوتها على التنظيم الجماعي او الابتكارات التي اوجدتها في صلب هذا التنظيم بالذات . وبموجب هذه المبادىء يذوب الفرد في المجموعة التي تذيقه العذاب والهوان : ولا يستطيع المرء في هذا المجال ان يتغاضى عن الحقيقة . ولكن يبدو هـــذا الواقع اخف وطأة مما هو في مصر ، وعلى كل حال يتجه اتجاهاً مختلفاً ، لان عبـــادة الموتى لا تحظى هناك باهمية كبرى في الدين ، ولان الملك لا يعد هنالك ايضاً في مصاف الآلهة . لذا فان لانصهار الفرد في بلاد الرافدين بالمجموعة الاجتماعية الذي تفرضه عقائد اخف وطأة مما هي في مصر ، وقعاً اقل شدة وقساوة . وهذا ما يفسر لنا مداورة كيف ان الفرد في بلاد ما بين النهرين احتفـــظ بقسط قليل بمبدإ حرية العمل مع خضوعه لمقتضيات الجماعة وللاوامر الالهية ، ومع خوفه من التهديدات والاشراك السرية التي تحيط بحياة الانسان وسعادته .

واستغل الفرد هذه المواقف التي لا تتصل كلياً بالعدم كما هو الحال في مصر . ولم يحمله ذلـك طبعاً على تحليل وفهم الحوادث والمظاهر التي اعتقد مبدئياً بانها لا تخضع لاي قياس منطقي . ولكنه استباح لنفسه اقله ان يراقب . لا بل سار على هـــذا المنوال لاعتقاده المتين بحقارة الانسان وبالتفوق الساحق الذي تملكه القوى التي تهيمن على مصير بني آدم وتفرده . وهذا مـا حدا بسكان بلاد الرافدين الى المراقبة وتدوين ملاحظاتهم بكل حماس . لا بل نلمس عندهم الجد والدقة والمثابرة على العمل .. وكلها عوامل قادتهم الى تخوم بعض العـلوم المباشرة . وسيحصد الورثة ثمرة جهودهم ، ولكنهم سيتبعون طرقاً اقل حكمة ، وان كان ذلـــك بصورة اللاوعي ، واقل تواضعاً ومثابرة ، مما يحملهم على ارتكاب اكثر من خطإ .